نفائس الفلسفة الغربية
مديرها الدكتور عثمان أمين

دفاع عن العلم

تأليف
ألبير باييه
أستاذ الأخلاق والاجتماع بالسربون

تعريب
الدكتور عثمان أمين
مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول

ملتزمو الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابى الحلبى وشركاه

القاهرة ١٣٦٥ هـ – ١٩٤٦ م

نفائس الفلسفة الغربية
مديرها الدكتور عثمان أمين

دفاع عن العلم

تأليف
ألبير باييه
أستاذ الأخلاق والاجتماع بالسربون

تعريب
الدكتور عثمان أمين
مدرس الفلسفة بجامعة فؤاد الأول

ملتزم الطبع والنشر أصحاب
دار إحياء الكتب العربية
عيسى البابي الحلبي وشركاه

القاهرة ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

دفاع عن العلم



اختارتنى « الجامعة المصرية » سنة ١٩٣١ عضـوا ببعثتها لمواصلة دراسة الفلسفة فى جامعة باريس .

وفى سنة ١٩٣٢ كنت مشغولا بإعداد شهادة « الأخلاق والاجتماع » وهى إحدى الشهادات التى تتألف منها درجة « ليسانس التعليم » بتلك الجامعة[1] . وكان من حسن حظى وحظ زملائى فى ذلك الحين أن جاء

---

(١) نود أن نلاحظ هنا أن كلية الآداب بباريس تمنح الطلبة نوعين من الليسانس فى الآداب : إحداهما عامة ، وتسمى «الليسانس الحرة» « La Licence libre » ، وتتألف من أربع شهادات يختارها الطالب نفسه من بين مختلف الشهادات التى تمنحها الكلية (بشرط عدم التعارض بينها) . والأخرى خاصـة ، وتسمى « ليسانس التعليم » « La Licence d'enseignement » أو « ليسانس الدولة » ؛ وهى عبارة عن أربع شهادات إجبارية ، تتألف منها إحدى المجموعات الأربع المعروفة فى الكلية .

وغنى عن البيان أن « ليسانس التعليم » هى الدرجة العلمية التى تعترف بها =

الأستاذ « ألبير بابيه » إلى السربون ، ليحاضرنا في العلم والأخلاق : فكنا نستمع وقتذاك إلى محاضرات فياضة بلغت الغاية في العمق والنفاذ والإمتاع، وامتازت بأنها مع التزامها سبيل التجربة والواقع، تفتح دائماً أمام أنظارنا آفاقاً واسعة غير محدودة . والحق لقد كانت طريقة الأستاذ «بابيه» في التعليم طريقة سمحة حرة لا تعرف تزمتا ولا ضيقا ولا جمودا : فكان هو نفسه يحث تلاميذه على أن يداوموا التفكير بأنفسهم ، دون أن يتقيدوا برأى من الآراء ما لم يقم عليه دليل من العقل أو التجربة ؛ وكثيرا ما كان يتهلل وجهه بشرا حين يرى الطلاب وقد أقبلوا عليه في نهاية المحاضرة ، ليناقشوه ، أو ليوجهوا إليه الأسئلة والاعتراضات ، أو ليطالبوه بزيادة في الإيضاح والبيان .

ذهبتُ إليه ذات مرة مع بعض الزملاء عقب محاضرة له في السربون

= الدولة الفرنسية وتعتبرها مؤهلة صاحبها للقيام بوظائف التعليم في المدارس الثانوية أما « الليسانس الحرة » فلقب لا أكثر ، ولا تعطى حاملها أي حق قبل الدولة . وما قلناه عن « الليسانس » بنوعيها يقال أيضا عن « الدكتوراه » الفرنسية ؛ فهي كذلك على نوعين : « دكتوراه الجامعة » « Doctorat de l'Université » و « دكتوراه الدولة » أو « دكتوراه الآداب » على الإطلاق « Doctorat ès Lettres » . والدكتوراه الثانية هي المعتبرة ، وهي تشتمل على رسالتين ، ولا بد أن تكون إحداهما عملا علميا ذا أصالة لا نزاع فيها .

ودارت المناقشة بين الأستاذ وتلاميذه زمنا طويلا ؛ ولبثت أنا صامتا منصتاً لما يقال دون أن أقول شيئا . فسألني الأستاذ إن كان لدى اعتراض فقلت له : « ليس لدى اليوم من ذلك شيء » . فلما سألني عن السبب قلت : « إنك يا سيدى محاضر ساحر . فأمهلني إلى الأسبوع القادم لعلى أكون قد أفقت من سحرك ! » .. فضحك الأستاذ وقال : « إن كان الأمر كذلك فإني مُعينك على أن تفيق ... إن مقصدى أن أصل معكم إلى الحقيقة . ولكم علىّ منذ الأسبوع القادم أن أعرض عليكم قبل المحاضرة ملخصا لها في صورة قضايا رياضية جافة موجزة . ويخيل إلىّ أن صورتها تلك ستدعوكم إلى محاولة نقضها أو تجريحها » . وكذلك فعل الأستاذ بعد ؛ فكنا نلقاه عقب كل محاضرة لتوجيه مايعنّ لنا من أسئلة، أو للإدلاء بما يعرض لنا من صعوبات ؛ وكان هو يجيب دائما على أسئلتنا أو اعتراضاتنا برحابة صدر وابتهاج .

وقد أثمرت هذه الطريقة أحسن الثمرات : علمتنا دروسا حية فى التواضع والحرية والسماحة ، وبثت فينا شيئا من خصال الشك والنقد والإنصاف ، وكلها صفات لازمة لقيام « الروح الفلسفى » أو « الروح العلمى » الذى هو الرسالة الأصيلة لكل جامعة تريد أن تقوم بواجبها على الوجه السليم .

ولم تنقطع صلتى بالأستاذ « بابيه » بعد حصولى على الليسانس ودبلوم الدراسات العالية ، ولا أثناء اشتغالى بإعداد « الأجرجاسيون » ورسالتى الدكتوراه ، بل كنت دائما شديد الحرص على الاستماع لمحاضراته وأحاديثه داخل السربون أو خارجها . ولقد ذهبتُ إليه يوما وفى يدى نسخة من كتابه « La Morale de la Science » (وهو هذا الكتاب الذى أنشره بعنوان «دفاع عن العلم») وقلت له إن لى على الكتاب بعض الملاحظات . فابتسم كعادته، وقال : «هات ما عندك» . فقلت : «إنى أعترض أولا على العنوان: فإن فيه التباسا يظهر على الخصوص إذا ترجم الكتاب إلى لغة أجنبية» . فوافقنى الأستاذ، ووعد أن يغير العنوان فى الطبعة التالية[1]. ثم وجهتُ اعتراضات أخرى إلى صميم الموضوع ، وتناقشنا فيها ، فاقتنعت ببعض حججه دون بعضها الآخر . وساقنى الحديث إلى أن أطلب منه الإذن بنقل الكتاب إلى اللغة العربية ، فأذن لى عن طيب خاطر . وشرعت فى الترجمة سنة ١٩٣٦ ، ولكن حال دون إتمامها انشغالى بالأجرجاسيون والدكتوراه . .

---

(١) لم تظهر طبعة أخرى للكتاب إلى اليوم . وقد رأيت أن يكون « دفاع عن العلم » عنواناً له بالعربية ، لأنه أدل على الموضوع وأبعد عن الالتباس من العنوان الأصلى : « أخلاق العالم » .

وعدتُ إلى مصر سنة ١٩٣٩ ، فعهد إليّ بتدريس تاريخ الفلسفة بجامعة فؤاد الأول ، وشغلتُ من جديد بدراسة «الرواقيين» و«ديكارت» و«سپينوزا» و«هيوم» و«كانت» و «محمد عبده» و «ف . ك . س . شلر» ... فوفقنى الله إلى إنشاء سلسلة «أعلام الفلسفة» ونشرتُ عن بعض هذه الشخصيات كتبا وبحوثا عربية وفرنسية . ونسيت كتاب أستاذى «بابيه» ، حتى كان العام الماضى إذ طالعتنى الأنباء بعودة الأستاذ إلى نشاطه العلمى بعد بلائه الوطنى فى حركة تحرير فرنسا ، فعاودنى الشوق إلى إنجاز ما كنت شرعت فيه . واقترنت هذه الرغبة الخاصة برغبة عامة كانت تلح عليّ وقتا طويلا لنقـل تراث الغرب الفلسفى إلى أبناء الشرق العربى ، فكان لى شرف القيام بإنشاء سلسلة : « نفائس الفلسفة الغربية » ، التى يسعدنى أن يكون كتاب : « دفاع عن العلم » ، أول ما أقدمه منها إلى قراء العربية .

ولقـد عدتُ إلى الترجمة فأكملتها ، وكتبت إلى الأستاذ المؤلف أستأذنه من جديد فى نشر تلك الترجمة ، فتفضل مرة أخرى بإرسال ذلك الإذن ، مع مقدمة كتبها خاصة لهذه الطبعة العربية . وقد رأيت أن أنشر خطاب الإذن والمقـدمة بنصهما الفرنسى ، مع ترجمة عربية لهما .

وإنى لأحمـد الله الذى هيأ لى أن أعرف الأستاذ « ألبير بابيه » معرفة شخصية ، وأن أحظى بالاستماع إلى محاضراته الممتازة فى السربون وفى غير السربون من المعاهد والجماعات العلمية الباريسية . ولا يسعنى إلا أن أكرر له الشـكر الوافر على الثقة الغالية التى وضعها فى شخصى حين أذن لى بترجمة هذا الـكتاب الجميل الفتان .

القاهرة : فى أكتوبر ١٩٤٦ عثمان أمين

خطاب الأستاذ بايه
إلى المترجم

Le 10 nov. 45.

Cher Amine,

Je vous envoie ce que vous m'avez demandé : une courte notice sur moi-même, et une préface nouvelle pour la Morale de la Science.

Je serai très heureux que ce Livre soit traduit en arabe, car vous savez ma vieille amitié pour le monde arabe, et je serai doublement heureux que le traducteur soit vous. Je garde toujours l' espoir de pouvoir aller en Egypte, mais, en ce moment, on est écrasé de besogne.

Croyez, cher ami, à mon affectueux dévouement.

Albert Bayet.

١٠ نوفمبر ١٩٤٥

عزيزى أمين

أبعث إليك بما طلبت منى : كلمة موجزة فى سيرتى ، ومقدمة جديدة « لأخلاق العلم » . وإنى لأكون سعيداً جداً بأن يترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، فإنك تعلم ما تنطوى عليه نفسى من صداقة قديمة للعالم العربى . ويسعدنى مرة أخرى أن يكون المترجم هو أنت . وإنى مازلت دائم الأمل فى أن أتمكن من الذهاب إلى مصر . ولكننا فى هذه الآونة مثقلون بالمشاغل والأعباء .

وثق أيها الصديق العزيز بما أحفظه لك فى قلبى من الود والوفاء .

ألبير بايه

كلمة للمعرب

عن الأستاذ

ألبير بابيه (ALBERT BAYET)

ولد « ألبير بابيه » فى مدينة ليون بفرنسا سنة ١٨٨٠ ؛ والتحق بمدرسة المعلمين العالية بباريس سنة ١٨٩٨ ؛ وفى السنوات الأولى للقرن العشرين انضم إلى « المدرسة الاجتماعية الفرنسية » التى كان يشرف عليها الأستاذ «إميل دوركايم» Emile Durkheim العالم الاجتماعى المشهور وفرغ الأستاذ بابيه للبحوث المتصلة بعلم الاجتماع التشريعى وعلم الاجتماع الأخلاق ؛ وتدل على هذا المنحى مؤلفاته الأولى : « الأخلاق العلمية » « La Morale Scientifique » ، «وفكرة الخير» «L'Idée de Bien» .

ووقعت حرب سنة ١٩١٤ ، فعاقت الأستاذ عن إكمال كتابه الكبير عن « الانتحار والأخلاق » الذى يعدّ ظهوره حادثا خطيرا فى تاريخ علم الاجتماع : إذ أدخل فيه مؤلفه مناهج جديدة كل الجدة فى مجال الاجتماع الأخلاق ، وقلب أغلب ما كان الباحثون السابقون يتلقونه بالتسليم من آراء عن الأصل فى استنكار الانتحار والأصل فيما يوقع عليه من عقوبة .

وبعد هذا بقليل نشر المؤلف كتابا فى « علم الوقائع الأخلاقية » « La science des faits moraux » حدّد فيه ما رأى أن يوصى

الباحثين باتبـاعه من مناهج البحث ، و بيّن أن واجب علم الاجتماع الأخلاقى أن لا يقصر بحثه على الوقائع القانونية والمذاهب الفلسفية ، بل ينبغى أن يدرس الوقائع اللغوية والوقائع الأدبية أيضا .

وشرع الأستاذ بعدئذ فى نشر مؤلف له كبير عن « تاريخ الأخلاق فى فرنسـا » « L' Histoire de la Morale en France » ؛ وقـد ظهر منـه مجلدان قبل الحرب الأخيرة ، أولهما فى « أخلاق الغاليين » « La Morale des Gaulois »، والثانى فى «الأخلاق الغالية الرومانية» « La Morale gallo-romaine »

وفى هذه الفترة نفسها نشر الأستاذ بابيه بحثا عن « مذاهب الأخلاق فى الإنجيل » « Les Morales de l' Evangile » ، وكتابا عنوانه : « ما المذهب العقلى ؟ » « Qu' est-ce que le Rationalisme ? » ونشر أخيرا كتاب « دفاع عن العلم » الذى نقدمه اليوم إلى قراء العربية .

***

ولقد اشتغل الأستاذ بابيه منذ سنة ١٩٣٢ بتدريس علم الأخلاق فى السربون ، ومضى فى أداء مهامه الجامعية ، يحاضر و يؤلف و يشرف على بحوث تلاميذه فى «مدرسة الدراسات العالية » وغيرها . ولقد كنا من بين من أسعدهم الحظ بتلقى العلم على هذا العالم المشرق والمحاضر المتدفق وقد انتفعنا بدروسه القيمة فى السربون ، وقراءة بحـوثه الجذابة فى الصحف والمجلات الفرنسية .

ولم يطب للأستاذ بابيه ، على الرغم من نشاطه العلمى الخصب ، أن يأوى إلى برج من العاج ، أو يعتزل شئون السياسة ، بل رأينا له منـذ كنا فى فرنسا قبـل الحرب الأخيرة نشاطا ملحوظا : رأيناه يناضل النازية والفاشية نضالا دائبا ، كما تولى رياسة «عصبة حقوق الإنسان » « La Ligue des Droits de l' Homme » ، و « عصبة التعليم» «La Ligue de l' Enseignement» ، و « الاتحـاد العقلى » «L' Union Rationaliste» ، و « اتحاد المفـكرين المناوئين للفاشية» « L' Union des Intellectuels anti-fascistes » .

ولما كانت سنة ١٩٤٠ عزلته حكومة فيشى من عمله فى السربون . فانضم أثنـاء الاحتلال الألمـانى إلى حركة المقاومة « فران تيرور » «Franc-Tireur» ، وأصبح رئيسا « لاتحاد الصحافة السرية » ، فاتخذ العدة بصفته هذه ، وبالاتفاق مع ممثلى حكومة الجنرال دوجول ، لظهور صحف فرنسية جديدة ، لـكى تحل محل الصحف المأجورة لهتلر وبيتان. ومن المعروف أن هذه الصحف الجديدة قد ظهرت فعلا إبان التمرد الوطنى وأن الأعداد الأولى منهـا بيعت فى نفس المعركة حـول « الحواجز البار يسية « Les barricades parisiennes » .

وفى فترة الصراع السرى نشر الأستاذ بابيه كتابا صغيرا عنوانه :

« بيتان والطابور الخامس » « Pétain et la cinquième colonne»

بيّن فيه أن فرنسا سنة ١٩٤٠ لم تهزم من الناحية العسكرية ، وإنما سلمتها إلى العدو عصابة من الخونة أرادت أن ينتصر هتلر .

وفى سنة ١٩٤٥ اختير الأستاذ بابيه عضوا فى « الجمعية الاستشارية » مندوبا عن حركة « المقاومة » .

ولما أصبح الأستاذ رئيسا « للاتحاد الوطنى للصحافة الفرنسية » « Fédération Nationale de la Presse Française » لم يشأ أن يتقدم إلى الانتخابات العامة ، ليتسنى له أن يفرغ إلى تعليمه فى السربون ، وإلى بحوثه فى علم الاجتماع . وقد علمنا أنه سينشر فى القريب كتابا كبيراً فى علم الاجتماع عنوانه « الأخلاق واللغة » .

***

ولعل ما يميز بحوث الأستاذ بابيه هو اتجاه جهوده إلى تحديد فرع خاص من فروع العلم الاجتماعى ، وهو العلم الخاص المنصب على الوقائع الأخلاقية، أو كما يسميه الأستاذ بابيه علم «الإيثولوچيا» Ethologie (١)

---

(١) لفظ « الايثولوجيا » « Ethologie » لفظ لا يخلو من التباس . فقد يبدو أنه إنما جعل منذ « چون ستيورات ميل » خاصا بعلم السمات أو الصفات التى يتصف بها الفرد أو الجماعة .

وهو يعنى بهذا دراسة القواعد والأحكام الأخلاقية دراسة وصفية تفسيرية محضة ، و بمعزل عن كل محاولة لمناقشتها أو تبريرها ، بل مع الاقتصار على دراستها كما تكشف عنها الصيغ واللغات والقوانين والعادات والآداب بصرف النظر عن كل ما يمكن أن ينسب إلى الفرد فى أصلها ونشوئها . ولقد أعطى الأستاذ نفسه أمثلة لهذا النوع من المباحث فى كتاب مستفيض شائق عن : « الانتحار » ، وفى كتابه عن : « علم الوقائع الأخلاقية » .

AVANT - PROPOS

Ce livre a été rédigé avant la dernière, guerre. Il tend à démontrer que la Science n'est nullement responsable des inventions meurtrières que les hommes tirent de ses découvertes,et qu'il y a, au contraire, une "morale de la science" qui, sur un grand nombre de problèmes essentiels, pourrait faire l'unité des hommes.

La question qne je traitais il y a une dizaine d'années est encore devenue plus brûlante au lendemain de la dernière guerre. La lutte menée par les Démocraties contre l'effroyable régression fasciste a produit un grand nombre d'armes nouvelles. Elle a suscité notamment cette "bombe atomique" qui, des ses débuts, a permis des destructions inouies et qui, si on la perfectionnait, mettrait en péril l'existence même de l'Humanité.

Bien entendu, les peuples, justement émus par cet effroyable péril, s'en prennent à la Science. Ils la rendent responsable des deuils et des ruines que l'invention nouvelle a déjà suscités, de ceux qu'elle pourrait susciter demain.

Je crois qu'il y a la une erreur totale et grave. La Science, comme j'ai essayé de le démontrer dans cette étude, est uniquement, exclusivement, un effort

de connaissance. Elle tend à nous faire connaitre de façon toujours précise la réalité, à dégager des faits et des lois positives.

Oeuvre purement intellectuelle et qui ne se propose pas d'autre fin que le progrès illimité de l'esprit humain.

Malheureusement, ces découvertes, dont le nombre, dequis un siècle s'accroit magnifiquement, surgissent dans des sociétés qui ne sont pas des sociétés de sages : d'où il résulte qu'on les utilise tantòt pour le bien, tantòt pour le mal.

Le biologiste découvre-t'il l'action d'une substance sur le corps humain? Le médcin s'en sert pour guérir, l'empoisonneur s'en sert pour tuer.

Le physicien découvre-t'il les lois sur lesquelles reposent le cinéma, la T S F ? Les uns s'en servent pour propager la vérité et la beauté, les autres pour propager le mensonge et la sottise.

Il en va de même pour la bombe atomique. Des savants illustres, à la tête desquels se trouve le français Joliot Curie, découvrent le moyen de capter l'énergie intra-atomique : les uns s'en servent pour fabriquer des èngins de meurtre et de ruine ; d'autres, demain, peuvent s'en servir pour élever merveilleusement le niveau de vie des hommes.

Ce n'est donc pas la science qui est coupable : ce sont ceux qui l'utilisent pour des fins injustes.

Il y a plus : non seulement la science n'est pas

coupable, mais elle porte en elle un idéal, une morale, qui, si nous savions les suivre, nous apporterait noblesse et bonheur.

La science, c'est ce que j'essaie de démontrer dans ce livre, implique l'idée que ce qui fait l'essentielle dignité de l'homme, c'est l'audace conquérante de la pensée; elle implique l'idée que la Liberté est la condition nécessaire de tous les progrès; elle implique enfin l'idée que l'union des esprits et des coeurs peut, et par conséquent doit se faire dans l'acceptation commune des vérités démontrées et des méthodes qui rendent cette démonstration possible.

Dignité de l'esprit, liberté, union : tel est donc le triple mot d'ordre de la morale de la science. Si l'humanité les écoutait, c'en serait fait des guerres, c'en serait fait des inégalités sociales et de l'exploitaion de l'homme; c'en serait fait de la misère; c'en serait fait de toutes les contraintes qui oppriment la vie des peuples et la vie des individus.

Alors, la question se pose: allons-nous continuer à nous servir de la Science contre la Science? Allons-uous, au contraire, prêter, l'oreille à l'enseignement moral qu'elle implique et qu'elle nous propose?

Plus que jamais il nous faut choisir.

Le monde vient d'être secoué et ensanglanté par la plus effroyable crise qu'ait connue l'histoire des hommes. A peine sorti de la tourmente, il cherche en

tâtonnant le moyen de prévenir un nouveau désastre, ét il se rend compte que, pour affermir la paix, pour organiser la collaboration internationale, il faut trouver des principes moraux acceptables pour tous les hommes. Ces principes, à qui les demander? Chacun se tourne d'instinct vers "sa" philosophie, ves "sa" religion, vers "sa" morale. Mais ces philosophies, ces religions, ces morales, valables en un lieu du monde, sont combattues ou ignorées en d'autres. Ici, c'est le christianisme qui prévaut, là c'est le bouddhisme, là le confucianisme, là l'Islam. La sagesse de l'Inde n'est pas celle de l'Occident. La Science, au contraire, a ce privilège qu' elle est partout la même pour tous et qu'on ne conçoit même pas une géométrie catholique distincte de la géométrie musulmane, une physique russe distincte de la physique américaine, une biologie française distincte de la biologie arabe. Sans contrainte, sans aucun recours à la force ou à l'autorité, la démonstration fondée sur la raison et l'expérience fait en tous lieux l'union spontanée des esprits. On a versé des flots de sang pour la Croix ou pour le Croissant, on n'a pas versé une goutte de sang pour le théorème de Pythagore, la loi de Newton, la relativté, le quantisme ou la Mécanique ondulatoire. Alors ponrquoi ceux qui communient dans un même respect des vérités établies

par la Science ne communieraient-ils pas dans un même respect des principes moraux dont la Science est née et qu'elle implqiue ?

Cette communion possible est, je crois, la grande espérance du monde. Si elle ne se réalise pas, les hommes vont vers des catastrophes pires que toutes celles qui les ont éprouvés dans le passé. Si elle se réalise, nous pouvont dès à présent utiliser les ressources inouies dont la Science nous a rendus maîtres pour supprimer à jamais la misère, faire que l'aisance, au lieu d'être le privilège de quelques-uns, soit le partage de tous, réduire infiniment les contraintes qui nous asservissent et diriger tous les hommes vers les activités les plus hautes et les plus nobles.

C'est avec l'espoir de contribuer à cette grande victoire que je dédie le livre qu'on va lire à tous les hommes de bonne volonté.

Albert Bayet

مقدمة خاصة للطبعة العربية

بقلم المؤلف

ألّفتُ هذا الكتاب قبل الحرب الأخيرة ، وقصدت فيه إلى أن أبيّن أن العلم ليس بمسئول مطلقا عن المخترعات الفتاكة التى يستخلصها الناس من كشوفه ، وأن أُثبت خلافا للرأى الشائع ، أن « للعلم » « أخلاقا » قد تستطيع أن تجمع شمل الناس حول عدد غير قليل من المشكلات الخطيرة .

بحثتُ هذه المسألة منذ أكثر من عشر سنوات . وها هى ذى تعود غداة الحرب الأخيرة أشد إلحاحا مما كانت من قبل : فقد أنتج الصراع الذى شنه أنصار الديموقراطية على الرجعة الفاشية المروعة كثيرا من الأسلحة الجديدة ، لا سيما « القنبلة الذرية » تلك التى استطاعت فى باكورتها أن تحدث من التخريب مالم يُسمع به من قبل ، والتى إذا قدّر لها الاتقان ، قد تعرّض وجود الإنسانية نفسه لخطر عظيم .

من الأمور الطبيعية أن ترتاع الشعوب لهذا الخطر المفزع ، فتصب

جام غضبها على العلم ، وتحمله مسئولية ما نتج عن الاختراع الجديد ، ومسئولية ما قد ينجم عنه فى المستقبل من قتل ودمار .

أعتقد أن هذا خطأ كبير . وقد حاولت أن أبيّن فى هذا البحث أن العلم ما هو إلا مجهود للمعرفة فحسب ، وأن مقصده أن يعيننا على أن نعرف الواقع معرفة دقيقة دائما ، وعلى أن نستخلص الوقائع والقوانين الوضعية . فمهمته مهمة عقلية محضة ، وليس له مقصد إلا تقدم الذهن الإنسانى تقدما غير محدود .

ولكن مما يؤسف له أن هذه الكشوف التى يزيد عددها منذ قرن من الزمان زيادة رائعة إنما بزغت فى مجتمعات ليست مجتمعات حكماء ، فنتج عن ذلك أنها استخدمت تارة للخير وتارة للشر .

قد يستكشف البيولوجى أثر مادة ما على بدن الإنسان ، فيستخدم الطبيب ذلك الأثر فى العلاج ، ويستخدمه المجرم فى القتل . وقد يستكشف عالم الطبيعة القوانين التى تقوم عليها السينما والراديو ، فيستخدمها بعض الناس لإذاعة الحق والجمال ، ويستخدمها البعض الآخر لنشر الأكاذيب والقبائح .

وكذلك القنبلة الذرية : فقد قام جلة من العلماء ، وعلى رأسهم العالم الفرنساوى « چوليو كورى » ، بكشف وسيلة يستحوزون بها على الطاقة الكامنة فى الذرة ، فاستخدمها بعض الناس لصنع معدات القتل

والدمار ، وقد يستخدمها آخرون غــدا لرفع مستوى حيــاة الناس إلى منزلة باهرة .

وإذن فليس العلم هو الآثم ، وإنما يحمل العلم فى نفسه مثلا أعلى ، ومذهبا أخلاقيا لو اهتدينا إلى اتباعهما لأوتينا نبلا وسعادة .

وقد حاولت أن أبين فى هذا الـكتاب أن العــلم متضمن لثلاث فـكرات : الأولى أن إقدام الفـكر وجرأته الفاتحة هما صميم الـكرامة الإنسانية . والثانية أن الحرية هى الشرط الضرورى لـكل رقى . والثالثة أن من الممكن ، بل من الواجب أن يتم ائتلاف العقول والقلوب إذا قبل الناس الحقائق التى أثبتها البرهان ، وقبلوا المناهج التى تمكّــن من إقامة ذلك البرهان .

وإذنْ فـكرامة الذهن والحــرية وائتلاف البشر ، هى كلمات السر الثلاث لأخلاق العلم . ولو أنصتت الإنسانية لها لذهبت الحروب والمظالم الاجتماعية واستغلال الإنسان للإنسان، ولقضى على عهد البؤس ، ولانتهت جميع ضروب الطغيان الذى يرهق حياة الشعوب وحياة الأفراد .

ومن أجل هذا وجب أن نتســاءل : أنمضى فى استخدام العلم لمحاربة العلم ؟ أم ننصت إلى ما ينطوى عليه وما يقدمه إلينا من هداية أخلاقية ؟

وينبغى علينا أن نختار الآن أكثر من أى وقت مضى : فقد اهتزت أرجاء العالم ، ولطخ بالدم أديمه فى أزمة هى أشد ما عرف تاريخ الإنسانية

هولا . وما كاد يزايل كربته هذه حتى أخذ يتلمس السبيل لدرء كارثة جديدة ، وهو عارف أنه لابد ، لتثبيت السلام الدائم وتنظيم التعاون بين الأمم ، من الاهتداء إلى مبادئ أخلاقية يقبلها الناس جميعا . فإلى من تطلب هذه المبادئ ؟

يتجه كل إنسان بغريزته إلى فلسفته « الخاصة » ، وإلى دينه « الخاص » ، وإلى مذهبه « الخاص » فى الأخلاق . ولكن هذه الفلسفات وهذه الأديان وهذه الأخلاق إذا وجدت قبولا فى مكان ما من العالم فهى واجدة مناوأة أو إعراضا فى أماكن أخرى : تكون الغلبة للمسيحية هنا ، وللإسلام أو للبوذية أو للكنفوشيوسية هناك ؛ وليست حكمة الهند حكمة الغرب . أما العلم فله ميزة انفرد بها ، وهى أنه واحد فى كل مكان وعند جميع الناس ؛ وما يدور بخلد أحد أن تكون هناك هندسة كاثوليكية متميزة من الهندسة الإسلامية ، ولا علم طبيعة روسى مخالف لعلم الطبيعة الأمريكانى ، ولا بيولوجيا فرنسية مستقلة عن البيولوجيا العربية . والبرهان القائم على العقل والتجربة هو الذى يخلق الوحدة والائتلاف بين النفوس ، عفوا ودون إكراه أو التجاء إلى القوة أو السلطة . ولقد أهدرت الدماء أنهارا من أجل « الصليب » أو من أجل « الهلال » ، ولكن لم تهدر قطرة دم واحدة من أجل نظرية فيثاغورس ، أو من أجل قانون نيوتون ، أو قانون النسبية ، أو نظرية

« الـكوانتا » أو الميكانيكا التموجية . وإذن فلم لا يكون المتآخون فى احترام الحقائق التى محصها العلم ، إخوانا متحابين فى احترام المبادىء الأخلاقية التى نشأ العلم منها واشتمل عليها ؟

أعتقد أن هذه الأخوة الممكنة هى معقد رجاء العالم : فإن لم تتحقق سار الناس إلى كوارث أنكى من جميع ما دهاهم فيما مضى ؟ وإن تحققت استطعنا منذ اليوم أن نستخدم ماذلل العلم من موارد عجيبة ، لنقضى قضاء باتا على البؤس ، ولنجعل رغد العيش أمرا ميسورا لجميع الناس ، لاميزة لبعض المجدودين ، ولنخضد شوكة الطغيان الذى يستذلنا ولنوجه جميع الناس إلى أرفع ضروب النشاط وأنبلها .

ولما كان مأمولى أن أعاون الساعين لتحقيق هذا النصر العظيم ، فإنى أهدى هذا الكتاب إلى جميع العاملين المخلصين .

باريس ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٥ — ألبير باييه

الفصل الأول

أخلاق العلم

ما عسى أن يكون للعلم من أثر فى مجال الأخلاق ؟ وما عسانا أن ننتظر منه فى هداية سلوك المجتمعات والأفراد فى الحياة النفسية التى يخلون فيها إلى ضمائرهم ؟

يقول بعض الناس : لاشىء. فالعلم مناوىء للأخلاق مفسد فى الأرض إذ يزيد قوانا على سفك الدماء ويجعل الإنسان عبدا للآلة ، ويزوّد البغضاء والشره والحماقة بسلاح خطر . فلا ينبغى أن نرجو منه أن يسنّ لنا أدب السلوك ، بل الأولى أن نفرضه عليه .

ويترفق البعض الآخر ، فلا يتهمون العلم ، بل يخطبون وده ، وقد يطلبون إليه عن طيب خاطر دقائق فنية فى تدبير صحة البدن أو شيئا من التفصيلات عن التنظيم الاجتماعى . ولكنهم ينكرون عليه الحق فى وضع القواعد أو رسم المثل العليا ، لأن العلم بطبيعة تكوينه يقرر ولا يحكم : فهو لاينافى الأخلاق immorale ، بل لايبالى بالأخلاق amorale

وما قيمة هذين الاعتراضين ؟

أود قبل بحث هذه المسألة ان أشير إلى أن الاعتراضين خلافا للظاهر يؤذيان العلم على حد سواء . يبدو لأول وهلة أن الضير الذى يقع على العلم ممن يتهمونه و يظهرون له العداء أبلغ مما يقع عليه ممن يرونه خارج دائرة الأخلاق وقد يمهدون له سبيلا حسنا لأداء مهمة ثانوية ليست بذات خطر. ولـكن أليس فى إعطائنا للعلم نصيبا ضئيلا فى الأخلاق ازراء به لا يقل خطرا عن إبعاده عن الأخلاق ؟ فما أضأل شأن العلم إذا تركناه يقدم لنا خلسة شيئا من المعلومات على الهامش ، أو بعض التعليقات والحواشى فى أسفل الصفحة !

إن الأخلاق بمعناها الصحيح ، ليست دفترا تقيد فيه النصائح والإرشادات العملية ، و إنما هى تعبير عن مثل أعلى ، مثل أعلى أعنى شيئا يستولى على الإنسان كله ، ويرفعه بالتجرد عن الذات فوق نفسه ؛ شيئا يبعث فينا يقيناً وحماسة ، وينشط الذهن والقلب جميعا ، ويجعل لحياتنا قيمة ، ويضفى عليها جمالا .

ولقد كانت جلائل الأعمال فى جميع الأزمان ثمرة لتقديس المثل الأعلى، و به وحده يحق لنا الرجاء فى أن ننطلق من هذه المادية الأخلاقية، ومن هذا الإسفاف والتفاهة التى تتردى فيها الجماعات المعاصرة كل يوم

أمام أعيننا . فلو تصورنا الحياة وقد خلت من هذا اللهيب لما أضحت بقية الأخلاق إلا حكمة هزيلة باهتة ، هى أشبه بأن تكون توفيقا بين مصالح ، وصناعة أو فنا للأنانية ، فى حين أن أضأل عمل من أعمالنا اليومية يصبح له معناه إذا كان صدى لشىء عظيم نؤمن به ونحبه . فإذا أنكرنا على العلم حقه فى إعطائنا مثلا أعلى ، وانتقصنا من مهمته فجعلناها أمرا ثانويا ، نكون فى الحقيقة قد منعناه من أن يؤثر أثرا جديا عميقا على أسمى ما فى المصير الإنسانى ، وما يبث الروح فى الهيئات والحياة فى الضمائر ، ونكون كمن يمسكون به على عتبة الهيكل قائلين له : « لن تدخل » !

***

أيحق لنا أن نقول له ذلك ؟ أيحق لنا أن ننحيه وننصرف عنه كأنه مناوئ للأخلاق أو كأنه شىء لا شأن له بالأخلاق ؟ وما حجتنا فى القول بأن الأديان والفلسفات تستطيع أن تبث الحياة فى نفوس الهيئات والجماعات وأن العلم يعجز عن ذلك ؟ وكيف يسوغ لنا أن نزعم أن أمثال هذه المخترعات الرائعة التى يكاد يقصر عنها الوهم ، والتى تغيّر أمام بصرنا صورة الكون ، هى أشياء لا أثر لها فى الحقائق العميقة حقائق الحياة الباطنة ، ولا فى الشعر والعواطف ، ولا فى الحركات الكبيرة التى توجه سير العالم ؟

أما أنا فلا أستطيع أن أسلم بهذا الحل اليائس الذى يفتح لنا سبل التقدم فى مجال المعرفة ولكنه يغلقها فى مجال الأخلاق . وما أكثر ما يلزمنا من أدلة لكى نسلّم بفكرة إخفاق كهذا ! ولست أرى فى هذه المعارضة التى يحاول بعض الناس توجيهها إلى العلم إلا آخر جهد تبذله قوى الماضى لمكافحة قوى الحاضر، وإن كنت لا أنكر ما ينطوى عليه هذا الجهد من حسن النية . لقد نظرتْ السلطاتُ المطمئنة إلى فتوحات البحث العلمى، تلك الفتوحات التى لم تكن لتخطر من قبل على قلب بشر فأخذها الفزع . ولما رأت السهول وقد غزاها العلم أرادت على الأقل أن تحافظ على المرتفعات . وهذا شبيه بما تحدثنا عنه أغانينا فى القرون الوسطى : ما يكاد البارون يحس هجوما حتى يتخلى عن المدينة، ويعتصم بالقلعة .

ولكن ها هى ذى ثلاثة قرون قد سلخها العلم دون أن يقف أحد فى سبيله . إن العلم بطبيعته غزو ، والنتائج التى يحققها هى جوابه على من ينكرون عليه إمكانياته . فبعد أن رأينا العلم يبلغ فى الفضاء ما كان يبدو بعيد المنال ، كيف يحل لنا أن نعتقد أنه سيقف أعزل من كل سلاح على عتبة العالم الأخلاق ، اللهم إلا أن تقع كارثة اجتماعية أو سكتة مفاجئة فى الحضارة الغربية ، فتفل من غربه وتحطم وثبته !

قد يقال إن الاعتراضين الكبيرين اللذين أشرتُ إليهما فيما سبق

باقيــان مع ذلك . وأظن أننا نستطيـع أن ننقض الاعتراض الأول . أما الاعتراض الثانى فأخطر منه وقد استوقفنى كثيرا؛ ولـكنى أرى اليوم أننا نستطيـع أن ننقضه . وكيف يكون ذلك ؟ بمخالفة الطريقة التقليدية فى وضع المشكلة : أصر النــاس اصرارا عنيدا على أن يطلبوا إلى عـلم الأخلاق مثلا أعلى ، وأنا أقول بل يجب أن يطلبوه الى أخلاق العلم .

الفَصلُ الثانى

هل العِلم منافٍ للأخلاق ؟

الاعتراض الأول : العلم منافٍ للأخلاق

يبدو — مع الأسف — أن من أيسر الأمور أن يوجه إلى العلم هذا المأخذ. قد يحلو للخطباء الرسميين أن يرددوا فى كل مكان أن العلم يكافح المرض والموت، وييسر ايجاد الثراء ، ويعين الفكر على الذيوع . ولكن هذه الأقوال كلها تذهب أدراج الرياح وما نكاد ننصت إلى هذه العبارات « الجاهزة » وتأنس لها نفوسنا حتى نجد الوقائع هى أيضا تتكلم ، ولغتها شديدة جافة أحيانا .

بالأمس ذهب خمسة عشر مليونا من الرجال ضحية للحرب . فمن الذى سلح الشعوب لتفعل أفاعيل الفتك هذه ؟ العلم ، بالعلم رأينا السكك الحديدية والسيارات تقذف فى لمح البصر كتلا بشرية على حقول القتال. وبه رأينا المصانع — وهى دائما على أحسن أهبة — تضاعف إنتاجها من المدافع والذخائر ، وبواسطته انتظمت القاذفات المهلكة ، وحلقت الطائرات

فوق الجيوش والمدن ؟ والعالِم حين يقف ثابتا أمام الجثث والأشلاء ولا يحرك ساكنا إزاء التشويهات والجراح يبدو للناس أطوع الخدام للقتل والدمار .

أغلطة يوم هى أم انحراف ساعة ؟ كلا . إن مما يؤسف له أنه ما كاد يتم توقيع الهدنة وردم القبور حتى رأينا المعامل تشتغل بأقصى ما فى طاقتها . ولأى شىء ؟ ألقتل روح الحرب ؟ كلا . وإنما هى فى شغل لكى تكون الحرب المقبلة أشد فتكا ! بل إننا نرى اليوم باحثين يقبلون على مهمتهم وعلى وجوههم سيما الجد والدءوب والإصرار ، حتى ليخيل إلى من يشاهد هذه الحماسة الرائعة أنهم قد انقطعوا لمشروع كبير فيه منفعة للناس . فإن دخلنا وجدناهم يبحثون عن الغاز الذى يحمل أضمن موت فى أوسع مدى . وإذا ظفرت جهودهم بالنجاح فإننا سنرى فى الغد أن قتل الناس بعضهم بعضا لن يكون مقتصرا على المحاربين . وسنودع تلك الجمل التى رددها القدماء فى تجنيب الضعيف ويلات الحرب cui bella parcunt وسنشهد إزهاق الأرواح بين الشيوخ والنساء والأطفال ، وستمحق الحياة فى المدن وفى القرى ، حتى يستطيع الناس أن يقولوا فى العلم ما قيل فى الفارس الذى يتحدث عنه سفر الرؤيا : « إن اسمه هو الموت » !

فاذا قيل إن الحرب على الرغم من ذلك كله أمر شاذ ، وإن زمان السلم يبقى مبرءاً من ويلاتها ، نهضت الوقائع من جديد لتفنيد هذا الرأى :

فهذه الآلات التى تزيدها جهود المهندسين كل يوم إبداعا، هل قدمت إلى مجتمعاتنا حياة السعة والاطمئنان التى وعدونا باسمها ؟ إن فى وضع السؤال سخرية قاسية : فالعمل فى المصانع، ذلك العمل الذى لا يكاد يترك للعامل وقتا للتنفس، يُحدِث فى هذه اللحظة نفسها البؤس والبطالة. وقد يخطر لمن ينظر فى حال بعض العمال أن يتساءل أيهما عبد للآخر : الآلة عبد للإنسان أم الإنسان هو الذى أصبح شيئا فشيئا عبدا للآلة !

صحيح أن فريقا من النـاس فى عصر الاستعباد القديم قد قُضى عليهم أن ينفقوا حياتهم محبوسين فى المنجم لا يخرجون منه، أو مقيدين بطاحون لا يستطيعون منـه فكاكا. لكن أولئك كانوا بالأمس قلة ؛ أما اليوم فإن شعبا بأسره يقدم ، ساعة بعـد ساعة ، ضحية للمعبود الجديد .

و «تعقيل» الصناعة rationalisation ، الذى هو ثمرة منطق قاس جاف ، يقضى على صانع الأمس بمصير شبيه بمصير الآلة التى لا إرادة لها .

كان ينبغى، بل كان من الممكن أن تكون الصحافة والسينما والراديو موطن حياة عقلية وحياة انطلاق. ولـكنا نرى الصحافة تتخلى عن خدمة الفكرة لخدمة المال . لقد زار «أناتول فرانس» ذات يوم مطبعة كبيرة، فحيى « هذه الحروف الرصاصية الصغيرة المقدسة التى ستحمل العدالة والحق فى أرجاء العالم » . واأسـفاه ! إن الحروف الرصاصية على وجه العموم

تحمل الكذب والغباء وروح البغضاء وروح الحرب وكل هذه المادية الكثيفة التى تخنق أنفاس العالم . ولقد سارت السينما والراديو على هذه السنة ، فسخرتا من الفكر ومن الفن ، وأصبحتا للناس مدرسة لنشر الغفلة والحماقة !

صحيح أن من الممكن أن نتفادى رؤية هذه الوقائع وجها لوجه . ولكن من حين إلى حين ترتفع أصوات الاستنكار فتنبهنا إلى الحق : إن نصف العالم ، ويمثله «غاندى» و«تاجور» ، يوجه الاتهام إلى النصف الآخر . أفنتظاهر بأننا لا نسمع؟ إن هذه المدنية الناشئة من العلم، والتى نزهو بها كل الزهو، هى فى رأى غاندى « العصر الأسود عصر الظلمات » ! والآلة التى نريد أن نجعل منها إله الخلاص يراها هو «الصنم البشع»! وكل حياتنا الصاخبة، نحن معشر الغربيين ، ليست إلا هيجانا مثيرا للضحك ، وليس من شأنه إلا أن يصرفنا عن العمل الباقى الصحيح . و«تاجور» وإن كان أكثر اعتدالا من «غاندى» يحمل على العلم حملة أشد فيقول: «إن الحياة القائمة على العلم تحلو لبعض الناس لأن لها كل صفات الرياضة البدنية : تتظاهر بالجد ولكنها خاو من العمق ، وهى لا تحسب حسابا للطبيعة الإنسانية العالية » .

أعتقد أن من العسير على من يقرأ دون تحيز هذه الأقوال لحكيمى

الهند أن لا يحس باضطراب عميق : فإن أحدا لا ينكر آخر الأمر أن الرجلين من أعلام الحياة الروحية . قد يُعترض عليهما أنهما نظرا إلينا من الخارج ، فتجاوزا فى حكمهما حد الاعتدال ، وأن لهما آراء سابقة فى « برابرة أوروبا » العظماء .

والجواب أن صوتا قد ارتفع من أوروبا نفسها مؤيدا لهما. لا يخطر ببال أحد أن أكبر علماء الطبيعة المحدثين يتكلم عن العلم الذى جددته عبقريته وفى نفسه ذرة من تحامل. ولكنّا نجد مع ذلك أن «أينشتَين» لا يقل قسوة عن «غاندى» فى حكمه على العلم إذ يقول : «لم يُستخدم العلم حتى اليوم إلا فى خَلْق العبيد : ففى زمن الحرب يستخدم فى تسميمنا وتشويهنا ؛ وفى زمن السلم يجعل حياتنا قلقة منهوكة مرهقة . كنا ننتظر أن يستعين الناس بالعلوم فى الانصراف إلى الأعمال العقلية ، فينالوا بذلك أكبر حظ من الحرية ؛ ولكن بدلا من ذلك صيرتهم العلوم عبيداً للآلة : إن السواد الأعظم من العمال ينفقون نهارهم الطويل الرتيب الخالى من البهجة وهم فى أشد حالات المضض والتبرم ، ولا يمنعهم ذلك من الارتعاد خوفا على مرتباتهم الضئيلة » ! ويمضى « أينشتين » فى حملته على العلوم فيقول : « أعمال جديرة باللعنات » .

لنسلم بأن فى كلام أينشتين غلوا ، وأنه إنما شدد النكير على العلم لأنه كان قد أسرف فى الإيمان به ؛ فهى مرارة وحفيظة محب مخدوع . ولنسلم أيضا ، لكى نكون منصفين، أنه لابد أن نقبل شيئا مما يرد فى الخطب الرسمية التى تشيد بما للمعرفة العملية من حسنات ومناقب : إذا كان العلم يقتل فهو ينجى أحيانا ، وإذا كان يسلّح الأحقاد ، فهو يسلح أحيانا إرادة الاتحاد ، وإذا كان يُرضى الغرائز المنحطة الشريرة فقد يتفق له أن يخدم أغراضا نبيلة لطيفة . ولكنا حتى لو ذهبنا إلى افتراض جرىء فقلنا إن بعض الحسنات قد تعوض عن بعض السيئات ، لكان ذلك اقراراً بالهزيمة وأى هزيمة ؟ فليس أشد منافاة للأخلاق بالمعنى الدقيق من أن يكون العلم قادرا على الخير فيعمل للشر ، وأن يعرف أنه قوة من قوى الحياة فينقلب قوةً من قوى الموت .

كلا. لن يحظى العلم بالغفران من أجل الحسنات التى يقدمها إلينا : لأن أكبر مايقع فيه من شناعة هو استطاعته أن يُعين على العدالة والمحبة، وشعوره بالقدرة على ذلك، ثم عدوله فى برود عما بدأه من تلك المهمة لكى يخدم القسوة والشراهة والحماقة. وقد نلتمس ، إذا اقتضى الأمر ، بعضَ العذر لقوةٍ لا شأن لها بالأخلاق وليس لديها فكرة ما عن الخير ولا عن الشر . ولكن كيف نبرىء علما لديه فكرة عن الخير ويخدمه أحيانا ،

ولـكنه ينقلب عليه فجأة ويشرع فى العمل للموت وللألم والعبودية ؟ أليس فى مثل هـذه الصفاقـة السافرة مايدعو أولئك الذين يضعون العدالة وطيبة القلب فوق كل شيء إلىأن يأخذوا بما ذهب إليه «پسكال» من أن العلوم ليست «من شأن الإنسان»، وأن الإنسان يضل عن سبيله إذا وقف عليها أكثر مما يضل إذا جهلها ؟

***

هذا هو الاعتراض . وأنى أختصر الاتهام، وبودى أن لا أكون قد أوهنته : لأنه إذا كان الأمر لا يعدو الوقائع المذكورة فإنى أشعر باتفاق عميق مع أولئك الذين ذكروها : فأنا أكره مثلهم آثار الحرب والموت هـذه التى تجهّـز فى ظل معامل الاختبار العلمى ؛ ولـكنى لا أستطيع أن أفكر بدون اشمئزاز فى هذه «الحضارة التى تُنسب إلى العلم والتى تَقصر مطامعنا على الظفر بالخيرات المادية وعلى اكتساب وسائل الراحة الرتيبة والترف الغليظ الخـــالى من الابتداع . كلا إنا لسنا فحسب منتجين ومستهلـكين ، قد كتب علينا ــ ولا فضل لنا ــ أن نصنع وأن نشترى . وهـذا النوع من الهمجية التى تهدد أوروبا القديمة متخفيةً وراء ستار العـلم يبدو لى فى وخامة عواقبه كالهمجية التى قوضت فى القرن الخامس العلمَ الرومانى القديم . فلو كان العلم ــ كما يعتقد غاندى وكما يبدو أنه رأى

أينشتين ـ مسؤولا عن جميع الآثام التى تقترف باسمه لوجب بغضه مع الاستمرار فى الإعجاب به . ولكن هل العلم مسؤول عن ذلك ؟

كلا . هذه الآثام حق لا ريب فيه . ولكن مهما يكن رأى رجال ضللهم قلب كريم ، فالعلم ليس مقترف هذه الآثام . والذى يوقع بعض الناس فى الخطأ هو أنهم فى الغالب يخلطون بين العلم فى نفسه وبين التطبيقات المستفادة من العلم . فرجل الشارع لا يفهم من العلم إلا السكك الحديدية والطائرات والتلغراف والتلفون والآلات على اختلاف أشكالها . واللغة والعادات تسوق إلى هذا الخلط سوقا شديدا ، حتى يجوز الخلط على العالم نفسه أحيانا ، فيتكلم ويحكم وكأن العلم هو ذلك كله حقا . ولكن العلم لحسن حظه وحظنا شىء آخر غير ذلك : إنه البحث عن الوقائع والقوانين بحثا بريئا .

إننى لا أقول هذا هنا دفاعا عن القضية : فإن التمييز بين جهة النظر وجهة العمل فى المعرفة والفن هو أول ما ينظر فيه البحث العلمى ، وهو شرطه وقانونه . ومهمة الباحث سواء فى علم الطبيعة أو فى علم البيولوجيا أو فى علم الاجتماع مقصورة على جودة التمحيص للوقائع وسنها قوانين . إنها مهمة لا تنتهى، بوجه ما : لأن المشكلة التى حلت تضع دائما مشكلة أخرى ، ولأن الطبيعة تقف عن تقديم الغذاء لما فينا من رغبة إلى التطلع ؛

ولكنها مهمة محدودة أيضا ، لأن العالِم من جهة كونه عالما يقصر جهده على الفهم المحض. ولو لم يكن الأمر كذلك فما الذى ترمى إليه هذه الفروض كلها التى يسميها قوانين ؟ ليس لهـا عنده إلا مقصد واحد : يجب أن تعطينا عن الكون تمثلا وصورة ذهنية هى دائمـا أوسع وأقرب إلى المعقولية . وجماع حياة العالِم فى كلمة هى المعرفة ، المعرفة لا أكثر ولا غير. صحيح أن الإنسان بعد أن يتم له تمحيص الوقائع وصياغة الفروض العلمية يريد أن ينتفع بهـا فى سـد حاجاته وإرضاء رغباته وتحقيق أهوائه : ومن هنـا نشأت آلات المخترعات العلميـة التى جاءت الآلة رمزا لهـا . ولكن القانون المقترح شىء والفائدة التى يحلو لنا أن نستخلصها منـه شىء آخر ؛ والمعرفة شىء والاستخدام شىء آخر . وإذا كنا لا نحكم على جهاز من كيفية استخدامه على يدى عامل غبى أو (غشيم) قليل المهارة ، فبأى حق نحكم على العلم تبعاً لما تجرأت على استخدامه فيه إنسانية جشعة قاسية ؟

فالتمييز بين الأمرين واضح كل الوضوح ، بحيث يتساءل الإنسان كيف أمكن أن يقع هذا الخلط . أما أنا فأرى أن لذلك الخلط سببين : الأول أن الذى يكتشف القانون العلمى ويرسم مشروع الآلة رجل واحد فى الغالب . ومن هذا يتعجل البعض فيستنتجون من كون العالم واحدا

أن المهمة واحدة . والثانى أن العلماء كثيرا ما يكونون أول من يفاخرون بالتطبيقات النافعة أو التى يرجى أن تعود بالنفع على الجماعة ؛ وقد ينساقون إلى القول بأن غاية العلم أن يسيطر على الطبيعة . وما داموا يستبيحون لأنفسهم الفضلَ فى النجاح الموفَّق فهم معرَّضون منطقيا لأن يتحملوا وزر التطبيقات الآثمة . ولكن إذا كانت هذه الأسباب تفسر الخلط المألوف بين العلم والصناعة واستعماله ، فهى لا تبرره .

نعم إن الغالب أن الرجل الذى يعرف هو نفسه الرجل الذى يعمل ، وأن الذى يكتشف هو عين الذى ينتفع من الاختراع . ولكن الواقع أنه متى تم له أن يركب آلة أو جهازا من أجل غاية تتجاوز المعرفة المحضة يخرج من مجال العلم ولا يعود يحمل مهما يفعل إلا مسؤوليته الشخصية. ومهما يبق الرجل هو نفسه ولا يخرج من معمله فإنه يترك مهمة ويقبل على أخرى . وإذا تغير قصده فقد تغيرت أيضا عقليته: فهو حين يكون عالما تكون لديه رغبة واحدة تملك عليه نفسه وهى الرغبة فى المعرفة ؛ وحين يكون إنسانا تكون له أهواؤه وعواطفه وعاداته ومصالحه وآراؤه. ولما كانت له أهواؤه فليس عجيبا أن يسخر معرفته لخدمتها . ولكن لا دخل للعلم فى أمثال هذه الرغبات ، وهو منها برىء ولو كانت آثمة .

وصحيح أيضا أن العلماء يفخرون بالمخترعات الخيّرة. ولكن من الحق

أيضا أنه إذا كان لهم فيها فضل، فليس ذلك من حيث أنهم علماء . فالعلم لم يوصهم بها ولم يوح بها إليهم : فى أى مكان من كتب علم الطبيعة يقال إن من اللازم التغلب على المسافات ؟ وفى أى مكان من البيولوجيا يقال بوجوب إنقاذ العدو بدلا من الاجهاز عليه ؟ وعلى أى براهين علمية يمكن أن تستند نصائح من هذا القبيل؟ وكيف تنقلب الملاحظة قاعدة ؟ إن الرغبة فى الإسراع والرغبة فى معالجة المرض والرغبة فى التغلب على الفضاء والمادة كلها أشياء سابقة على العلم الوضعى ، وقد ألهمت العدّاء والساحر قبل أن تلهم المهندس والطبيب . فاذا كانت أشياء خيرة فليس للعلم فضل فى هذا الخير : ولهذا السبب عينه لم يكن العلم مسؤولا لا عن المدفع ولا عن القنبلة ولا عن سائر تلك الوسائل الفتاكة الآثمة .

* * *

وإذن فالخلط الشائع الذى لا مبرر له بين العلم وتطبيقاته هو منشأ اتهام العلم بأنه مناوئ للأخلاق بحجة أننا قد راق لنا أن نستخلص منه وسائل للقتل وللاستعباد . والموت الذى سببه الفولاذ أو الغاز، والآلام الحادثة من المصنع ، والسخافات التى تذيعها السينما : كل هذا ليس من صُنع العلم ، بل من صنعنا نحن .

ولو نشأت ونمت الطبيعة والكيمياء والبيولوجيا وسط شعوب حكيمة لما « استُخدمت » إلا لغايات سليمة كريمة . وإذا كان ما يحدث

خلافا لهذا ، وإذا كانت الكشوف العلمية التى تعطينا عن الواقع صورة أكثر اتساقا قد جعلت فى خدمة أعمال الفتك والعدوان ، فليس الذنب ذنبَ هذه المكتشفات ، وإنما هو ذنب مجتمعاتنا التى تحمل فى نفسها رغبات فاسدة . وإذا لاحظنا أن هذه المجتمعات تستخدم العلمَ لإزهاق الأرواح تارة ولعلاج الأمراض تارة أخرى ، وأنها على الجملة توجهه إلى الشر أكثر مما توجهه إلى الخير ، فمعنى هذا أننا خيرون وأشرار ، أو أننا أميل إلى الشر منا إلى الخير . وهذه الملاحظة صحيحة وإن لم تكن جديدة . ولكنها إن صحت حجةً علينا فليست تصح حجة على العلم .

لقد هوجمت إحدى المدن اليونانية القديمة وكادت أن تقع فى أيدى الأعداء . فلما ضاقت بحرّاسها سبل الدفاع عنها ألقوا على المهاجمين تمثالا من تماثيل الآلهة . وصرَع التمثالُ الأعداء ، وهو طرفة من طرف الجمال . فهل خطر لأحد أن يتخذ من ذلك حجة على أن الفن الجميل قاتل للناس ؟ ولو اتفق أن عاون المثّال نفسُه على رمى التمثال فلن يضير ذلك فن الحفر فى شىء . فليس من الإنصاف إذن أن ينهض غاندى وتاجور وأينشتين نفسه ، فيتهمون العلم ويحاولون أن يحمّلوه عبء الآثام التى تقترف باسمه وفى كنفه . فإذا أردنا أن نحكم على العلم دون

تحيّز وجب أن نحكم عليه فى ذاته ومن وظيفته الخاصة . وإذا نظرنا إليه من هذا الوجه وجدناه بريئا من كل ما يرمونه به . إن العالِم إنسان كسائر الناس ؛ وهو لذلك يجوز أن يقترف الإثم . ومن الأسف أنه يأثم فى أكثر الأحيان . ولكنه إذا استعان بالعلم على الإثم فلن يكون العلم شريكا له بل يكون من ضحاياه .

الفصل الثالث

هل العلم غريب عن الأخلاق ؟

من سوء الحظ أننا حين رددنا على الاعتراض الأول قد جعلنا الاعتراض الثاني قويا بحيث يكاد يمتنع تقويضه . ذلك أننا إذا سلمنا بأن العلم ليس مناوئا للأخلاق اضطررنا إلى أن نعده غريبا عن الأخلاق ولا عناية له بالخير ولا بالشر وإنما هو موكل بالبحث عن الحق فحسب .

وكيف ننكر هذا ومهمة الأخلاق هداية العمل ، ومهمة العلم تفسير الكون؟إن الأخلاق تحكم juge أما العلم فيلاحظ constate . والعالِم يحدثنا عما هو كائن، أما الأخلاق فيحدثنا عما ينبغي أن يكون. ولا يستطيع المرء أن يجمع بين هاتين المهمتين المختلفتين : فليس من شأن الفلكي أن يحكم على النجوم ، ولا من وظيفة عالم الطبيعة أن يناجي الذرة . فإن حاول العلم — وما هو إلا دراسة الموجود — أن يرسم لنا المثل الأعلى

جاوز مهمته وزالت عنه صفة العلم . وما دام العلم بارعا فى المعرفة وغير بارع فى الحكم ، فهو بطبيعته غريب عن الأخلاق .

هذا هو الاعتراض . وما يخطر لى أن أوهنه ، بل إنى أحب على العكس أن أكشف عن قوته ، لأنى أعتقد أن كثيرين من أهل العقول الراجحة قد تجاهلوا قوة الاعتراض ، فأساءوا تصور العلاقات بين الأخلاق والعلم ، وقادونا إلى الهوة التى يجب علينا أن نخرج منها اليوم .

حتى إن العلم «وضعى» «positive» لا «معيارى[1]» «normative» وحتى أنه يبحث فيما هو كائن ، لا فيما ينبغى أن يكون . وصحيح أن العالم يجب عليه حين يبحث عن حقيقة ما أن يُخرج من هذا البحث كلّ رغبة صريحة أو مستترة تدعوه إلى أن يحكم على ما يشاهد أو أن يستخلص منه قاعدة للحياة . وما فتئ كثير من الناس مترددين فى قبول هذا الأمر البديهى ، لأنهم يرون فيه نوعا من الإخفاق . فهم يصرون على أن يقولوا للعلم : « اخلق واعطنا أخلاقا ! » ، ولكنهم لا يتنبهون إلى أن العلم لو استجاب لأمنيتهم لخرج عن مهمته ، وفقد احترام نفسه ، وضاع معه نفوذه .

من هذا الخلط نشأت جميع المذاهب الأخلاقية المتهافتة التى يسمونها «علمية» ، والتى ربما كانت تضرّ بالعلم لو لم يكن العلم فوق هذه الألاعيب التى يحاولها البعض مستغلين اسمه .

---

(١) أنظر هامش (١) فى بداية الفصل الرابع .

فمن الناس من يطلب إلى البيولوجيا علما أخلاقيا فيقول : « جميع الـكائنات تريد أن تعيش . وهذه حقيقة واقعة . فإرادة العيش يجب أن تستخدم أسـاسا للأخـلاق » . ولـكنا نقول إنه لو ثبت أن جميع الأحياء يريدون أن يعيشوا فبأى حق يقرر العلم أن مثل هذه الإرادة عاقلة وأنها طيبة ؟ وعلى أى نوع من المشاهدات أو التجارب يستند هذا القول ؟ وماذا يسوّغ للعالم أن يأمرنا بأن نطيع الطبيعة بدلا من أن نقاومها ؟

ومفـكرون آخرون اعترضتهم هذه الصعوبات فعدلوا عن التوجه إلى العلوم المستقرة ، ولجأوا إلى علم آخر أطلقوا عليه اسم « علم الأخلاق » ونسبوا إليه ـ كما يشير اسمه ـ جميع صفات العلم وجميع صفات الأخلاق معا ، وراحوا يقولون فى زهو : « ها هى ذى المشكلة قد حلت ! » .

ولعمرى هذا ما يرجوه « علم الأخـلاق » . إنه يعطى بلا حساب ما يطلبونه إليه : يعطى أخلاقا عقلية أو قلبية ، ويعطى أخـلاقا لمنفعة الفرد أو لمنفعة الجماعة ، وأخلاقا للطبيعة وللشرف وللتعاون وللواجب ، حتى ليتحير المرء فى أن يختار منها واحدة . ولمّا كان كل ضرب منها مرتبطاً بنظام من الاستقراءات والاستنباطات ، فقد عرضوا علينا واحدة منها على أنها أخلاق علمية . ولسوء الحظ أنه ليس منها واحدة استطاعت أن تولد فى النفوس هذا الحد الأدنى من الاتفاق الذى يولده العلم . وهذا وحده يلقى

شيئا من الريبة على الصفة التي تزعمها لنفسها . والواقع أن المسيو « لِڤي برول »[١] قد بيّن في كتاب كان له بين الناس ذكر[٢] أن « علم الأخلاق » لما كان علما « معياريا » « normative » فليس له من العلم إلا اسمه ، وأنه تناقض في الألفاظ ومخلوق ممسوخ . وعبثا يستعيرون اسم العلم والمظهر الخارجي للعمل العلمي : فإنهم متى جعلوا موضوع دراستهم ما ينبغي أن يكون بدلا مما هو كائن فقد تجاهلوا الروح نفسها المسيطرة على عمل العالِم .

إني أحيل القارئ على ما أورده المسيو « لڤي برول » من حجج . لقد انقضى ربع قرن من المجادلات الحادة المحتدمة ، وما زالت حججه محتفظة بكل قوتها . إني أعلم أن أنصار المذهب القديم يردّون بأن من الممكن أن تكون هناك علوم من أنواع مختلفة . وأن الآراء عن الخير والشر إذا بقيت عقلية يمكن أن تسمى علمية . ولكن من البديهي أن هذا محض لعب بالألفاظ ، وأن بين المذاهب الأخلاقية عند أرسطو ، و« زينون »[٣] ، و« كانْت » ، والمذاهب الوضعية عند « نيوتن »

---

(١) « لڤي برول » « Lévy-Brühl » ، كان أستاذاً لتاريخ الفلسفة في السربون . له بحوث مهمة عن « ألمانيا منذ ليبنتز » و « أوجست كنت » و « الأخلاق الاجتماعية » . وهو أحد زعماء المدرسة الاجتماعية الفرنسية .

(٢) الكتاب الذي يشير إليه الأستاذ بابيه هو كتاب : « الأخلاق وعلم الطبائع والعادات » « La morale et la science des moeurs » .

(٣) « زينون » (٣٦٠ — ٢٦٣) فيلسوف يوناني أصله من قبرص . أسس المدرسة الرواقية في أثينا . وكانت حياته مثلا أعلى في سمو الأخلاق .

و «أينشتين» فرقا فى الطبيعة . وما عسانا أن نستفيد من الجمع تحت لفظ واحد بين أشياء شديدة التباين كهذه ؟ قد تبيح اللغة هذا ، ولكن الحقيقة تأباه ، ويقف العلم ثابتا وهو يشهد موت هذه المذاهب التى انتسبت إليه دون أن تخرج من صلبه .

أمعنى هذا أن من المستحيل أن ندخل العلم مجال الأخلاق ؟

لست أنا الذى أقول قولا كهذا . يستطيع العلم أن يَدخل مجال الأخلاق ، ويجب أن يدخله مع بقائه هو هو . إن أفكار المجتمعات المختلفة عن المثل الأعلى ، وعن الواجب ، وعن الحياة ، وبالجملة عن الخير والشر ، هى وقائع موجودة ثابتة نستطيع أن نلاحظها كما نلاحظ المنحنى الذى يرسمه نجم من النجوم ، أو الخط الذى يحيط بهيكل جسم من الأجسام . وإذا كان علم الأخلاق وهماً لاوجود له ، فإن علم الوقائع الأخلاقية « الإتولوچيا » « Ethologie » يمكن أن يكون علماً وضعيا مضبوطا كعلم الطبيعة والبيولوچيا . وحسبه لكى يكون علما أن يتذرع بالشجاعة والحزم لينفصل عن الفلسفة التى خرج منها كأسلافه ؛ وعليه أن يطلّق أمله فى أن يكشف ، لأول وهلة وبعمل تجريدى أولى ، عن القوانين العامة للعالم الأخلاقى ، وأن ينهض بما يملك من همة وصبر للدراسة

الوقائع ، وأن يفرض على نفسه منهجا متشددا متبصرا كالمناهج التى تستخدم فى دراسة العالم الطبيعى . نعم إن المهمة شاقة ، لأن احتمالات وقوعنا فى الخطأ تزيد كلما زاد اشتغالنا على وثائق إنسانية . ولكن الجهود الخصبة التى بذلها التاريخ الحديث قد عملت فى أناة على تجديد منهج نقدى ليس أقل متانة من أى منهج علمى آخر . وإن من المؤرخين أمثال «كركو پينو» أو «پيكار» من بلغوا فى تمحيص الوقائع الإنسانية من التحوط ـ وقد كدت أقول من التوجس والحذر ـ الدرجة التى يمكن أن يصل إليها مسيو « رابو » « Rabaud » نفسه إذا أراد أن يمحص واقعة بيولوچية . ويوم تصح عزيمة علماء الاجتماع على مراعاة هذا المنهج نفسه فلن يكون علم الوقائع الأخلاقية أقل متانة من أى علم من العلوم التى سبقته . وإنى لوطيد الأمل فى أن ترى القرون القادمة تطورا فى علم الاجتماع شبيها بالتطور الذى نشاهده الآن فى علم الطبيعة : يومئذ يكون العلم قد وسّع مجاله ومدّ رحابه، فيصبح كما أراده «أوجست كمت»(١) السيد الروحى للعالم الحديث ، ويسيطر بيقينه على آلاف المشكلات المتروكة اليوم لهاتيك النظرات العقلية الجليلة التى لا تخلو مع ذلك من زعزعة وقلة يقين .

غير أننا حتى لو تجرأنا فى استباق الحوادث ، فذهبنا إلى افتراض أن علم الوقائع الأخلاقية ، قد شب وخرج نهائيا من طور

---

(١) انظر هامش ٣ ص ٦٢

طفولته ، فلن يتغير وضع المشـكلة العملية التي تعنينا ، بل تظل هي هي بنصها وعباراتها .

لنتصور أن «الإتولوجيا» تقول لنا : إن الواقع يشهد بأن الأفكار الأخلاقية عن القتل والانتحار والسرقة والـكذب تتغير طبقا لهذه الواقعة أو تلك من الوقائع ، وأن التصورات المتعلقة بالأسرة وبالمدينة تتبع في بيئة معينة هذا المنحنى أو ذاك . صحيح أن أمثال هذه النتائج التي نلمحها ولا نراها ستـكون رائعة . ولـكن العلم الذي يقيّد تلك الوقائع وتلك العلاقات لن يسمح لنفسه بأن يستخلص منها أمرا ولا نهيا . إنه إنما يهدي إلى السبيل التي سلـكها الناس ، ولا يستطيع أن يأمرنا بما يجب علينا أن نسلك من سبل : تلك مهمته؛ فإن تجاوزها انقلب من علم الوقائع الأخلاقية إلى « علم الأخلاق » ، وعدنا بذلك إلى سيرتنا القديمة.

وللتخلص من هذه الصعوبة عمد «دوركايم»[1] إلى تفرقته المشهورة بين ما هو طبيعي ، أو صحيح أو مطرد « normal » وما هو « معتل » أو مرضي « pathologique » . يرى « دوركايم » أن علم الاجتماع يجب أن يصل إلى أن يحدد لـكل فئة اجتماعية حالة « طبيعية » شبيهة بحالة

---

(١) « دوركايم » Durkheim (١٨٥٨ـ١٩١٧) زعيم المدرسة الاجتماعية الوضعية الفرنسية ؛ وله بحوث مهمة في الاجتماع والأخـلاق والتربية ؛ وجه أكبر عنايته إلى إقامة أخـلاق وضعية بالمعنى الصحيح . أشهر مؤلفاته : « قواعد منهج العلم الاجتماعي » و « توزيع العمل الاجتماعي » و « الانتحار » الخ .

الصحة فى الفرد . وإذا تم ذلك فقد وجدنا أمام أبصارنا مثلا أعلى ، ولم يبق علينا إلا أن نبلغه .

ولكن تلك النظرية الطريفة ترد عليها اعتراضات خطيرة : إنها أخذت الطبيعى مقابلا للمرضى . ولكن كل ما هو غير طبيعى ليس بالضرورة مرضيا . فإذا جرينا على قاعدة « دوركايم » استهدفنا لأن نحمل على محمل الذم ما خرج عن المألوف فى الحسن والقبيح على السواء. وصعوبة أخرى : لا بد لنا أن نعتمد على أمثلة من الماضى لكى نحدد النوع المسمى بالطبيعى . وهذا قد يسد طرق التقدم : مثال ذلك أن دوركايم يشرح لنا فى صفحات مشهورة أن انتشار الجرائم فى مجتمعاتنا إلى درجة معينة أمر طبيعى . وهذا أمر لا يخامرنا فيه شك إذا نظرنا إلى ما حدث حتى اليوم . ولكنا لو فرضنا أن العلم وجد غداً وسيلةً لتقليل عدد القتلة واللصوص ، فهل ننكر هذه الوسيلة زاعمين أن تقليل عدد المجرمين أمر غير طبيعى ، وأنه إذن شىء مرَضى ؟ وأخيرا ماالذى يسوّغ لعلم الاجتماع أن يقرر أن حالة « الصحة » حسنة ومرغوب فيها لمجتمع ما . إن المجاز لأول وهلة يُجيز الفكرة : لأننا نقول إن الصحة فى الأمور الفزيولوجية شىء مرغوب فيه بلا نزاع .

ولكن لو فُرِض أنها كانت مرغوباً فيها فليس علم البيولوجيا هو

الذى يقول ذلك : ليس لدى البيولوجى شىء يقوله لمن يقبلون أن يتحملوا الآلام والموت نفسه باسم مثل أعلى ينشدونه . وكذلك فى مجال الأخلاق : لا ندرى ما عسى أن يقول علم الاجتماع لفئة من الناس قصدت إلى الشذوذ عمدا . لكى ينكر علم الاجتماع هذا القصد يجب أن يكون محتفظا فى جعبته بتعريف علمى للخير والشر . ولكنه لكى يعطى تعريفا كهذا يجب أن ينقلب علما تشريعيا : وإذن فنحن نجد أنفسنا وجها لوجه أمام الصعوبة التى أردنا أن نتفاداها .

***

خير لنا أن نكون أكرم نفسا ، فنعترف بأننا لا نستطيع بحال من الأحوال أن نمس ما هو روح البحث العلمى . إن تحويل المشاهدة أو الخبر إلى أمر أو نهى يحتاج إلى معجزة ؛ والعلم لا يصنع المعجزات . يستطيع العلم أن يدلنا على الأفكار الأخلاقية عند الفئات الإنسانية ، ويستطيع أن يدلنا على كيفية تطورها ، ولكنه لا يستطيع أن يرشدنا إلى قيمتها ولا إلى ما كان ينبغى أن تكون . فلنوطن أنفسنا على هذا فلا نطلب إلى العلم ما لا يسوغ له أن يعطينا .

ولكن ليس معنى هذا أن العلم يعجز عن التأثير بطريق غير مباشر فى الحقائق الأخلاقية . إننا نستطيع أن نستخلص التطبيقات من علم

الوقائع الطبيعية . وإذا تركنا الآن النتائج المباشرة لمسلمة « الحتمية » «déterminisme» التي ستتحدث عنها بعد[1] ، وفرضنا أننا اكتشفنا الأسباب التي تؤدي إلى زيادة عدد حوادث السرقة والقتل ، تيسر لنا بداهةً أن ننتفع بهذه المعرفة في تخفيض عدد تلك الجرائم . ولوفرضنا أننا استطعنا يوما أن نتكهن تكهنا يقينيا بالاتجاه الذي سيمضي فيه تطور الأخلاق فيما يتصل بالطلاق والملكية والمساواة ، ساغ لنا عندئذ أن نأمل بأن نرى خصوم الأفكار التي قدّر لها الانتصار تخف حدتهم في معارضتها إذا عرفوا أنها لا مفر منها . لا أحب أن أحط من شأن هذا الأثر الذي درسته طويلا ، والذي يمكن أن يكون عظيما ، ويحلو لي أن آمل أن يكون أثرا طيبا . ولكن هناك على كل حال ملاحظتين ضروريتين : الأولى أن هذا الأثر الطيب افتراضي محض . والثانية أنه حتى لو تحقق فلن يكون إلا أثرا غير مباشر ، ولن يكون العلم باعثَه ولا صاحبَ الفضل فيه .

أقول إن الخير في هذا الأثر افتراضي : والواقع أنه لا شيء يضمن لنا أن مجتمعا ينتفع بالاكتشافات الأتولوجية لكي يستخلص منها إصلاحات نافعة . ولنفرض أنه ثبت ثبوتا قاطعا أن تعاطي المسكرات يزيد عدد الجرائم . فهل تكفي هذه الملاحظة في حمل تجار الخمور على العدول عن

(١) في الفصل الثامن .

تجارتهم ؟ ولنتصور أيضا أنه ثبت على وجه لا يحتمل الشك أن مذهب الحماية الصناعية فى مجتمعاتنا الحاضرة سبب من أسباب الحرب . فهل تعدل الصناعات المحمية بهذا عن تلك الحماية ؟ . إن ثمة فرقا بين المعرفة والإرادة : نقرأ اليوم إحصائيات تجعلنا نتبين بجلاء أن نظام العقوبات الذى يطبق عندنا على المراهقين لا يردعهم عن الإجرام بل يحملهم على التمادى فيه . ويقرأ كثيرٌ من الناس هذه الإحصائيات وهم يفكرون فى شيء آخر. وإن الأرقام تثبت أن تقييد الدعارة باللوائح يخلق فى بلدنا مباءات للفساد الجسمانى والأخلاقى . ويُلقى الناسُ نظرة عابرة على هذه الأرقام ، ويتركون اللوائح القديمة تسير سيرتها الماضية . واعتقادى أن تقدم علم الاجتماع سيزيد معارفنا يقيناً ووسائلنا للعمل قوةً . ولكن ليس من المؤكد بداءةً وقبل التجربة a priori أن رغبتنا ستصير بهذا أشد وأقوى .

يمكن أن يقال أيضا إن فكرة واضحة عن التطور الذى يسوقنا إلى هذه الناحية أو تلك ينبغى نظرياً أن يؤدى إلى الاتحاد وجمع الكلمة أكثر من ذى قبل . وقد يقال إن دعاة مَثَل من المُثُل العليا ، متى عرفوا أنه تخلّف عن الزمن ، انضووا تحت لواء الفكرة التى قدِّر لها الغلبة . ولكن ما هذا إلا افتراض يجوز أن تؤيده الوقائع ؛ ويجوز

أيضا أن يكون أنصار المثل الأعلى مخلصين مؤمنين بقضيتهم ، لا يتخلفون عن الذود عنها ، ويناضلون من أجلها إلى النهاية ، حتى ولو عرفوا أنها خاسرة لا يرجى لها نجاح .

ولكن مهما يكن الأمر فإن هناك شيئاً لا نزاع فيه : وهو أن علم الوقائع الأخلاقية ، من حيث هو علم ، ليس له علينا سلطان . فهو لا يأمرنا أن نفعل شيئا ولا ينصح لنا أن نجمع كلمتنا على شيء . إنه يستطيع أن يقول لنا : ها هو ذا سبب هذا النوع أو ذاك من الجرائم . ولا يستطيع أن يقول لنا : افعلوا شيئا فى هذا السبب ! ويستطيع أن يقول : هاهى ذى فكرة فى طريقها إلى النصر . ولا يستطيع أن يقول لنا : تخلوا عن الفكرة المخالفة ! أما المصلحون الاجتماعيون – وسيأتى يوم يحلون فيه محل المهرّجين من السياسيين ضيقى النظر – فعلم الاجتماع يعطيهم وسائل للعمل ولا يعطيهم همة وثابة ولا أغراضا واضحة .

والأمر الأهم ، الأمر الذى نجد أنفسنا دائما مضطرين إلى أن نعود إليه ، هو كيف نختار مثلا أعلى ؟ إن مذهب الأخلاق القديم يدلنا لا إلى مثل أعلى واحد ، بل إلى عشرة ؛ ولكنه لم يكن علما . أما «الإتنولوجيا» ، أعنى علم الوقائع الأخلاقية ، فهى علم ؛ ولكنه لا يعطينا أى مثل أعلى .

أيلزمنا إذن أن نسلم بأن العلم ، ومهمته المعرفة المحضة ، عاجز بماهيته عن أية هداية للإنسان ؟ وأليس لنا بدّ من أن نعترف بأن العلم يضيء العالم ولكنه يترك فى القلوب ظلاما !

من الناس من لا يترددون أمام هذه النتيجة العابسة : فهذا مسيو « لِقى برول » ، يجيب بابتسامة على صرخة الجزع المنبعثة من طالبي مذهب أخلاق جديد قائلا لهم : لا نستطيع أن نعطى جماعة من الجماعات إلا الأخلاقَ التى اصطفتها من قبل . كلمة مؤيسة ! ولكنها لا تخلو من عمق ومن اقناع ، وإنْ يكن فيها إثارةٌ للمشاعر . وكأنّ المتشوقين إلى المثل الأعلى يقفون على عتبة العلم فيجدون أمامهم جملة خطها القدر المحتوم : « اتركوا كل أمل ! » .

مهما يكن فى هذه النتيجة من منطق وصرامة فعلينا أن نعترف أولاً بأن فى أعماق نفوسنا شيئا يرتفع بالاحتجاج عليها : فمنذ بضعة قرون غيّر العلم فكرتنا عن الكون وعن أنفسنا : طارد الأساطير القديمة ، و«الكسموجونيات»[1] المقدسة ، ونقّب عن اللامتناهى فى العظم واللامتناهى فى الصغر ، وأخضع لانتصاراته أفكاراً كانت تبدو ثابتة ، كفكرة الزمان والمكان ، ولم يستطع شىء أن يقاوم توثبه . أيكون مآل كل

---

(١) « الكسموجونيات » نظريات فى تكوين العالم .

هذا العمل البديع أن يخفق على عتبة العالم الأخلاق ! وهذه التغيرات الهائلة فى مجال العلم ألا يصاحبها أى تغيّر فى مجال الأخلاق ! وأنّى لنا أن نعتقد بأن هنالك انفصالا تاما بين الفكر والعمل ، بين الحق والخير ! إن علم الاجتماع الناشىء يرينا أن مذاهب الأخلاق حقائق متحركة وأنها دائما فى طريقها إلى التغير . أنكون مضطرين الآن إلى أن نسلم بأن الثورة العلمية ستنقضي دون أن تترك فى تلك المادة المتغيرة أدنى أثر ؟ ما أبعدَ هذا عما يشبه الحق ! كل شيء يؤثر فى الأخلاق : البيئات وأنماط الحياة والأحوال الاقتصادية والفن والأديان والفلسفات ؛ فهل يبقى العلم وحده بعيداً عن التأثير فى الأخلاق ؟

أعلمُ أن بعض الناس سيردّون علينا بأننا نحن الذين نقول هذا . والواقع أننا نحن الذين صرحنا بأنه لا علم إلا مما هو « وضعى » : ويبدو أننا بهذا قد سددنا بأيدينا الطريق إلى رغباتنا . إننا نحن الذين نصرح بأن المشكلة جوهرية وأن حلها مستحيل .

ولكن مشكلةً ما إذا بدا حلها مستحيلا ، فذلك لأنها فى الغالب لم توضع وضعاً صحيحا . وأعتقد أن هذا يصدق على المشكلة التى نحن بصددها : إذا نظرنا إلى العلاقات بين الأخلاق والعلم على نحو ما نظر إليها أسلافنا ، لم نستطع أن نسير أبعد مما ساروا . إننا من وجه ما قد

نقطع شوطا أقل مما قطعوا : لأن منهجنا يُلزمنا بتدقيقات وقواعد لم يعهدوها . ولكننا إذا غيرنا نص المشكلة ، ووضعناها وضعا علميا ، وجدنا الحل الذى كان ينفلت منهم معروضا من نفسه علينا ؛ إنه ماثل أمامنا ، ويعيش تحت سمعنا وبصرنا ؛ إنه منقوش فى الواقع ، قبل أن يكون مسجلا فى الكتب ؛ ولا حاجة بنا إلى أن نخترعه ، بل علينا أن نشاهده .

الفصل الرابع

أخلاق العلم

يبذل المفكرون حتى اليوم جهودا كثيرة لإقامة علم للأخلاق . وكانت جهودهم توغلا فى مأزق لا مخرج منه ، لأنه لا يمكن أن يقوم علم بما هو « معيارى » أو « تشريعى » « normatif »[1] . ولكن لنقلب المشكلة فنتساءل : إذا لم يمكن إقامة علم للأخلاق ، أفلا يمكن أن يكون هنالك أخلاق للعلم ؟

أعتقد أن وجود أخلاق للعلم أمر ليس ممكنا فحسب ، بل هو موجود بالفعل . وأخلاق العلم عبارة عن جملة الأفكار المعيارية التى حملت

---

(١) بعض العلوم يكون القصد منها تفسير الظواهر ، كعلوم الطبيعة ، فسميت من أجل ذلك « علوماً تفسيرية » « sciences explicatives » ؛ وبعضها يكون الغرض منها وضع القواعد وصوغ المعايير ، كالمنطق والأخلاق ؛ وقد أطلق عليها « ڤندت » Wundt اسم « العلوم المعيارية » « sciences normatives »
المعربه

الناس على السير فى طريق البحث العلمى ، والتى جعلتهم يحددون مناهجه ويوثقون تقدمه .

وما دام الناس يطلبون إلى العلم أن يصنع مثلا أعلى برمّته ، فهو يتهرّب من هذه المهمة ، لأن له مهمة أخرى . ولكن إذا سألناه أىّ مثل أعلى يستوحيه وأى المبادىء هى مبعث نشاطه الفعلى أجابت الوقائع وكشف العمل عن العامل.

وقد يُقال إن أخلاق العلم هذه لم يَصُغها أحد بعدُ ، ولم يركزها أحد فى مذهب ؛ وهذا صحيح . ولكنى أود أن أبين أن هذا ليس انتقاصا ولا بدعا .

اعتدنا بتربيتنا الفلسفية أن لا نطلق اسم الأخلاق إلاّ على الأفكار التى رتبها أهل الصنعة ترتيبا علميا . نقول : أخلاق أفلاطون(١) ،

---

(١) «أفلاطون» (٤٢٧–٣٤٧ ق . م) فيلسوف يونانى كبير . تلميذ سقراط وأستاذ أرسطو ، كتب محاوراته الفلسفية فى أسلوب هو غاية فى الروعة والبهاء . وتكاد تكون شخصية سقراط مدار تلك المحاورات ، ويكاد يكون الفكر المسيطر عليها نفحة من نفحات النظر السقراطى الباهر . ولكن أفلاطون كان شاعراً بقدر ما كان فيلسوفاً ، فاستطاع أن يفيض من روحه على تعاليم أستاذه وأن يمدها بما لعبقريته من قوة وعمق وسناء . وأفلاطون منشىء المذهب المثالى ، وهو شيخ الطامحين إلى المثل الأعلى فى كل شيء . وإذا كان هذا « الفيلسوف الإلهى » قد أخطأ فى السياسة فرد هذا الخطأ نفسه إلى رغبته المتأججة فى أن يجعل « للخير » على الإطلاق سلطاناً على النفوس — المعرب .

وأخلاق أرسطو[١] ، وأخلاق «كانْت»[٢] ، وأخلاق « كُمْت »[٣]
ونكاد نميل إلى الاعتقاد بأن كل شيء فى الأخلاق قائم فى تلك المذاهب
الكبيرة المرتبة والموقع عليها !

---

(١) «أرسطو» (٣٨٤ — ٣٢٢ ق . م) أكبر العلماء والفلاسفة فى العصور القديمة . تتلمذ على أفلاطون ، وواصل تعاليمه المثالية ؛ ولكنه جعل فيها للتجربة والمشاهدة نصيباً أكبر مما كان لها عند أفلاطون . ثم استقل أرسطو بالمدرسة الفلسفية الكبيرة التى أُطلق عليها اسم « المدرسة المشائية » . وقد ألف أرسطو كتباً ورسائل كثيرة أهمها : « ما بعد الطبيعة » و « العلم الطبيعى » وكتب فى المنطق وعلم النفس والأخلاق والسياسة الخ ، فأحاط بمعارف عصره وأصبح معلماً لا لبلاد اليونان وحدها بل للإنسانية كلها — المعرب .

(٢) « كانت » Kant (١٧٢٤ — ١٨٠٤) أكبر فلاسفة الألمان وأحد أساتذة الفكر الإنسانى . حاول أن يقيس قدرة عقولنا ، وأن يرسم لها حدودها ومداها ؛ فوضع العقل الإنسانى موضع النقد الدقيق ؛ ومن أجل هذا أطلق على فلسفته اسم « الفلسفة النقدية » . والمذهب الكانتى مبسوط فى ثلاثة كتب على الخصوص : الأول « نقد العقل الخالص » أى نقد مبادئ العلم ؛ والثانى « نقد العقل العملى » أي نقد مبادئ الأخلاق ، والثالث « نقد الحكم » أى نقد مبادئ الذوق . ويعد كانت أكبر الأخلاقيين فى العصور الحديثة — المعرب .

(٣) « أوجست كت » Auguste Comte (١٧٩٨ — ١٨٥٧) فيلسوف فرنسي . مؤسس مدرسة فلسفية تسمى بالمدرسة « الوضعية » « positiviste » كما أنه مؤسس العلم الوضعى للجماعات أو « علم الاجتماع » . أهم كتبه : « دروس فى الفلسفة الوضعية » و « قواعد العقيدة الوضعية » و « السياسة الوضعية » وأخيراً « دين الإنسانية » . وقد كان لهذا الفيلسوف تلاميذ كثيرون أغلبهم من العلماء والأطباء ؛ ولكنهم لم يتابعوه على العموم فى الجزء الأخير من تعاليمه وهو ما سماه « دين الإنسانية » — المعرب .

ولكن من النتائج الأولى التى اكتسبناها من علم الوقائع الأخلاقية إزالة هذا الوهم : الأخلاق عند مَن يلاحظها ملاحظة علمية هى التمييز بين الخير والشر على نحو ما يتجلى فى الوقائع الاجتماعية . والفلسفات إحدى هذه الوقائع ؛ ولكن هناك وقائع أخرى تَعدِلها أهميةً وخطراً .

من المستبعد أن يكون فيلسوف كبير أوثقَ دليل يهدى من يريد معرفة الأخلاق فى عصر أو بلد معين : إن عبقرية الفيلسوف تحمله على أن ينظر إلى الأشياء نظرة شخصية ، وعلى أن يهمل بعض الوقائع ، وأن يبرز بعضها الآخر . صحيح أن أجمل مذهب ليس إلا انعكاسا لفترة من الزمان أو لبيئة من البيئات ؛ ولكنه مرآة تشوّه الملامح .

ليست الأخلاق اليونانية محصورة فى مذهب أفلاطون ولا فى مذهب أرسطو، ولا الأخلاق الكاثوليكية محصورة فى مذهب القديس «توما». فالصورة الوضاءة التى يرسمها الفيلسوف شىء ، والحقيقة التى تؤثر مباشرة فى الوقائع ، وإن لم يُعبَّر عنها بالألفاظ شىء آخر . هذه الحقيقة المؤثرة يبحث عنها عالم « الإيتولوجيا » فيما ابتدعه المجتمع من نظم كبرى كاللغات والشرائع والفنون والآداب والعادات : هنا يكشف عالم الإيتولوجيا القوى العميقة التى تتحكم المذاهب من داخلها أو خارجها ، وتقود الجماعات الإنسانية ، وتكون أغلب الأحيان منقوشة فى الوقائع

قبل أن تودع فى العبارات .

ولننظر مثلا فى الأخلاق التى تنظم الأسرة فى مجتمعاتنا : إن اليونانى والرومانى والفرنسى يمارسون الزواج من زوجة واحدة . لنسألهم باسم أى مبدأ فلسفى يخضعون لهذه القاعدة ؛ عندئذ نجدهم فى حيرة لا يجيبون . ولكن أخلاق الزواج بامرأة واحدة ، تلك الأخلاق التى تلهم قانونهم المدنى والجنائى كما تلهم عاداتهم وآدابهم ليست مع ذلك أقل قوة . إن زواج الرجل من ذويه الأقربين ، محرّم عند هؤلاء اليونان والرومان والفرنسيين . فهل لهذا التحريم صلة بنظرية أفلاطون فى « المُثل » ، أو بنظرية أرسطو فى الوجود ، أو بالخير الأسمى عند «الرواقيين» أو «الأبيقوريين» ، أو بمبادىء القديس «توما» ، أو بقواعد «كانْت » ؟ أعتقد أن من العسير أن نجد صلةً من هذا القبيل ؛ ولو وجدت لكانت لفظية واهنة . ولكن الأخلاق التى تستنكر الزواج من المحارم l' inceste تلك الأخلاق المسطورة فى القانون وفى العادات ، ليست أقل من المذاهب الفلسفية قوة وعمقا ، وإنْ لم تكن معروضة فى مذهب قد أُلِّف تأليفا منطقيا .

ولننظر أيضا فى أكبر تحول عرفته المجتمعات الغربية : وهو إلغاء الرق . لو سئلنا اليوم فى القرن العشرين باسم أى مذهب نستنكر الرق

استطعنا أن نجيب جوابا لا يخلو من منطق : إن ذلك باسم فلسفة القرن الثامن عشر التى أعلنت حقوق الإنسان . ولكنا نعلم حق العلم أن تلك النظرية لم تحرر إلا بعد حين ، أى بعد أن كانت المهمة قد تمت ، وبعد أن كان الرق كله قد اختفى أو كاد يختفى من مجتمعاتنا . ولكن لنبحث فى التاريخ عن المذاهب التى أدت إلى إلغاء الرق . يحيل بعض المفكرين إلى الأخلاق الرواقية : ولكن « الرواقيين »[١] كان لهم أرقاء . ويُحيل البعض الآخر إلى الأخلاق المسيحية : ولكن الكنيسة كان لها أرقاء . ولقد كان المفكرون من جميع المدارس يجدون دائما صيغا مرنة تعينهم على أن يراعوا النظام العتيق ، وكأنهم يحملون عليه بإحدى اليدين ، ويؤيدونه باليد الأخرى . ابحث ما شئت فى التاريخ ؛ فإنك لن تجد

---

(١) « الرواقيون » « Les Stoïciens » (القرن الثالث قبل الميلاد) أصحاب مدرسة كبيرة من المدارس الفلسفية اليونانية ، اشتهروا بمذهب أخلاقى بلغ مبلغاً كبيراً من القوة والنبل والتأثير . ويتلخص المذهب فى أخلاق الواجب ، التى تجعل شعارها أن يعمل الإنسان ما يجب من غير نظر إلى عواقب العمل . وفى تفاصيل الأخلاق الرواقية أمور كثيرة قد ينازع فيها ولكن فى المذهب مباينة صريحة لأخلاق اللذة التى دعا إليها « إبيقور » فى نفس ذلك العصر . ومن حسن الحظ أن أجمل تعاليم الرواقية قد بقيت على الأجيال بفضل ما خلفه « إبكتيتوس » و« سنكا » و« مرقس أوريليوس » فى أقوالهم التى تتضوع بعبير التقوى وعزة النفس واحتقار الموت . وقد يؤخذ على الرواقيين ما فى سلوكهم من كبر واعتزاز وازدراء للحياة . ولكن العصور القديمة كلها لم تبلغ قط ما بلغوه من الشعور بكرامة الإنسان . ــ المعرب .

ذلك المشهد الرائع ، مشهد مذهب يقوم فيقضى على الرق . ولكن من حسن الحظ أن هنالك أخلاقاً واقعية كانت تعمل وتؤثر بينما كان الفلاسفة يتكلمون ويكتبون . وتلك الأخلاق الواقعية هى التى ألهمت « نيرون »[١] ، ذلك المحسن إلى الإنسانية ، أن يحقق ذلك العمل الثورى العظيم الذى أباح للرقيق إذا عومل معاملة بالغة القسوة أن يرفع شكواه إلى القضاء ، وألهمت القرارات الكثيرة التى أصلحت حال الرقيق ثم الموالى serfs . فماذا كانت حقيقة تلك الأخلاق الواقعية ؟ لو سئل الذين كانوا يخدمونها عن تعريفها لاعترتهم حيرة : لأن المشرعين الرومان الذين كانوا أول من عمل لهذه الأخلاق ، يقعون فى متناقضات تستدعى الإشفاق حين يستهدفون إلى الإشارة بهذا الصدد إلى شىء من المبادىء . ولكنا نحن بعد حين نرى النهج الذى سلكوه والذى انتهى إلى حقوق الإنسان . إن الأخلاق الصامتة المتضمنة فى جهودهم المتواصلة أقوى من العبارات المزعزعة التى نقرأها فى كتب الفلاسفة .

وإذن فليس علينا من بأس إذا لم تنتظم أخلاق العلم بعد فى مذهب ولم تتركز بعدُ فى قواعد ، بل لن يزعجنا أن نرى أن بعض العلماء لم

---

(١) « نيرون » Néron امبراطور رومانى عاش فى القرن الأول للميلاد واشتهر بقسوته وفظاعته .

يلبوا دعوتها عن وعى وشعور . لم يكن لهذه الأخلاق نُظّارها ، (ses théoriciens) وإنما كان لها عُمّالها (ses artisans) ، ولم تعبّر عن مثلها الأعلى باللفظ وإنما خدمته بالفعل ؛ إنها متضمّنة فى وجود العلم وفى نفس تطوره .

ذلك أن للعلم مقصده الذى يشير إليه حين يسعى إليه . وإن شئنا قلنا إن للعلم حقه ، لأننا نستطيع أن نطلق هذا الإسم على المنهج العقلى الذى تهيؤه جهود الباحثين الموصولة . فلندرس هذا المقصد ، ولندرس هذا الحق ، فنتبين حينئذ أنهما يستلهمان مثلا أعلى ، وأنهما يفترضان ويتضمنان نظرة عن عظمة الإنسان وجمال الحياة .

وتلك الدراسة هى التى أريد أن أخط خطوطها الأولى فى الصفحات التالية . ولكنى أريد قبل الشروع فيها ، أن أنوّه بأنها من طبقة الدراسات الوضعية بالمعنى الدقيق ، وأن المثل الأعلى الذى سنحاول بلوغه ليس من المثل العليا المتخيلة التى خلقها ، ثم فرضها ، أو أوحى بها علماء تجاوزوا مجالهم الخاص ، وإنما هو المثل الأعلى الذى يوحى إليهم ، ويستحثهم على العمل حين يبقون فى مجالهم لا يعدونه . ولا يظن أحد أن العلماء يبغون أن يفرضوه علينا مغتصبين لأنفسهم وظيفة المشرعين ، بل إنهم لا يبالون بأن يزينوه لنا ، ولا أن يخلعوا عليه ثوبا قشيبا خلابا

بل ولا أن يعبروا عنه بالـكلام ، و إنّ منهم من يترسمه و يتـأثره دون أن يراه . أما نحن فمتى أخذنا فى تحليـل العمل الذى قاموا به انـكشف لنا المبدأ الذى أعانهم على إتمامه .

و إذن فنحن الآن ، وسنظل إلى النهاية فى منطقة الوقائع لا الأوهام، نلاحظ حقيقةً ما ملاحظة علمية ، وفقا للقواعد التى يجرى عليها العلماء فى البحث النقدى .

أطلتُ القول فى هذه الأمور ، لأنى لا أحب أن أقع فى الخلط الذى أشرت إليه فيما سبق ، ولا أن أنحرف دون أن أشعر عن موقف العالم إلى موقف المشرع . وأرجو أن أكون قد تجنبت هذا الخطر فيما عالجت حتى الآن . وأحسب أننا حين نقف بإزاء واقعة اجتماعية كبيرة ، كالخلق العلمى،فنبحث عما انطوى فيها من أخلاق، نكون مخلصين للمنهج الاجتماعى الدقيق . وغنى عن البيان أن التخطيط الذى أحاوله هاهنا بسيط جـدا و بعيد عن الـكمال . و ينبغى أن يعود الباحثون إليه من جميع وجوهه بالتعديل أو التنقيح أو الزيادة ، ولـكنه بحث علمى فى روحه .

ومهما يلحظ الناس فيه من ثغرات ومهما يتبينوا فيه من غلطات فإنى أكون مغتبطا إذا وافقنى القارئ على الأمرين التاليين :

الأول : أن علم الأخـلاق ليس إلا وهما ، فى حين أن أخـلاق العلم شىء واقع وحقيقة حاصلة .

الثانى : أن أخلاق العلم هذه كما نستطيع أن نراها اليوم تعدل فى جمالها أو تتجاوز ماقدمه المفكرون لنا من مذاهب الأخلاق قبل العصر العلمى . وهى أيضا قادرة على أن تنظم حياتنا وأن تثير حماستنا .

الفصل الخامس

كرامة الفكر

أول فكرة ينطوى عليها تقدم العلم نفسه هى أن الكرامة الإنسانية عبارة عن جهد العقل لبلوغ الحقيقة .

وليس من المهم أن يقول لنا العلماء هذا : ففى سيرتهم تأييد للفكرة . لنعتبر جميع هؤلاء الرجال الذين أقبلوا على دراسة الطبيعة وكانوا بالأمس قلة وهم اليوم نفر عديد . ما الغاية التى ينشدونها من جهودهم ؟

غايتهم كما قلنا هى المعرفة ولاشىء غير هذا. ذلك أن العلم ، العلم الصحيح بحث مبرأ من الأغراض ، لايعنيه حين يرى مشكلة أن يعرف هل يكون لحلها نتائج عملية أو لايكون ، ولا يبالى إلا بأن يستعيض عن جهل بعلم .

وهذا ما أبدع فى بيانه مسيو « لانجڤان »[1] فى محاضراته القيمة عن

---

(١) « لانجڤان » Langevin عالم فرنسى من علماء الطبيعة المعاصرين وأستاذ علم الطبيعة فى « الكليج دو فرانس » . له مباحث مشهورة عن نظرية الإلكترون وعن الكهرباء — المعرب .

العلم ومذهب الحتمية ، إذ نهض فى قوة محتجا على ماسماه « النظرة الظاهرية للعلم » وعلى أولئك الباحثين من علماء الطبيعة الذين يريدون أن يقنعوا بمشاهدة الوقائع والتكهن بها ، ويأبون أن « يفسروا » ، أى يأبون بعبارة أخرى أن يفهموا . وقد قابل «لانچڤان» فى تلك المحاضرات بين أصحاب المبدأ المشهور مبدأ « اللاتحديد » « indétermination » وبين « المفسرين الذين لا يرعوون » (les explicatifs impénitents) أمثال «أينشتين»، مبيناً أن هؤلاء المفسرين وحدهم «فى الطريق الملكى لعلم الطبيعة »! ولم ؟ لأن فوق الفائدة العلمية التى يمكن أن تقنع بالتكهن يوجد « هـذا النوع من الاستطلاع البسيط المركوز فى نفوسنا ، والذى يحثنا على محاولة الفهم ، ولولم يكن ينفعنا فى شىء »

لعل أجمل وأروع الكشوف العلمية ما تم منها فى علم الفلك . فما التطبيقات العملية التى خرجت من تلك الكشوف ؟ لم ينتج عنها بعد أية آلة من شأنها أن تبدل أحوال معاشنا . وهذه الكشوف مع هذا نموذج للانتصار العلمى . ولم ؟ لأنها غيرت فكرتنا عن الكون ، ولأنها جعلت الغلبة للعقل فى مجال كان يبدو بعيداً عن متناول العقول .

والعلم إنما هو هذا السلطان، سطان العقل ، وهذا الجهد المبذول لتناول الوقائع وترتيبها فى عالم المعقولات . هذا شأن العلم : فالمعرفة هى الغاية الوحيدة عند عالم الطبيعة أو عالم البيولوجيا أو عالم الاجتماع. وما معنى هذا

إلا أن هؤلاء الباحثين جميعا أصحاب مثل أعلى واحـد يجعل الصدارة للعمل المظفر عمل الفـكر ؟

حق أنه يبدو أن هذا المثل الأعلى مشترك بين العلماء والفلاسفة والمؤمنين بالأديان. ولـكنا متى تعمقنا النظر إلى الأشياء ظهر لنا فارق كبير فى الجوهر.

صحيح أن أهل الإيمان والفلاسفة قد يوافقون « پسكال »[1] على أن كرامتنا كلها فى الفكر ؛ وهم بهذا لا يبتعدون عن العلماء؛ ومن أجل هذا كانوا أسلافا للعلماء مهدوا لهم الطريق . ولـكن إذا كان أولئك وهؤلاء لا يجدون عسرا فى الاتفاق على أن «الصدارة لما هو روحى » فإن اتفاقهم يقف عند هذا الحد : لأن العلم يرى البحث شيئا لا متناهيا ، ويجعل عظمتنا فى هذا الفتح الذى لا يعرف له حـدا . أما الأديان، بل المذاهب الفلسفيه، فلاهتمامها بما هو مطلق ، تحاول أن توقف الذهن عند مواضع حاسمة لا يبرحها .

كلنا نعرف عن ظهر قلب الصفحة العظيمة التى كتبها « پسكال »، وقال

---

(١) « پسكال » Pascal (١٦٢٣ ــ ١٦٦٢) فيلسوف فرنسى وعالم عبقرى وكاتب منقطع النظير . نبغ فى الرياضيات والطبيعيات ؛ واخترع عدة آلات فى جملة أغراض ؛ وقام بتجارب مشهورة عن ثقل الهواء وغير ذلك . ويعد كتابه « الرسائل القروية » الذى شنع فيه على أخلاق اليسوعيين وسياستهم ، نموذجاً للهجاء ، لما تجلى فيه من فصاحة العبارة وقوة المنطق وبراعة السخرية . أما كتابه : « الخطرات » فعبارة عن مواد جمعها لتأليف كتاب كبير كان يرمى منه إلى تشكيك الناس فى العقل وفى العلم لـكى يلقوا بأنفسهم فى أحضان الدين . ــ المعرب .

فى مطلعها : « فليتأمل الإنسان الطبيعة بأسرها فى جلالها البالغ السمو والتمام ! . . » ذلك مطلع أملته روح عالم ؛ وتلك الروح نفسها هى التى سادت « پسكال » حين حاول أن يذكرنا بما فى الوجود من ثراء لا ينفد. ولكن پسكال بعد أن وثب وثبة رائعة ، لحمل أذهاننا من اللامتناهى فى العظم إلى اللامتناهى فى الصغر ، ومن الأكوان اللموحة إلى الذرات المتوهمة ، شعر بما أرهقه من عبء ، فعدل عن السير ، وأخذه الخوف فكتب : « من نظر إلى نفسه على هذا النحو ملك الفزع عليه قلبه... فارتعد من تكشّف هذه العجائب . وأحسب أنه متى انقلب استطلاعه إعجابا صار أكثر استعدادا لتأملها فى صمت من البحث عنها فى زهو وعُجب . . » و يمضى پسكال فى منطقه هذا فيقول . « لابدّ من معارضة من يتعمقون العلوم أكثر مما ينبغى ، أمثال ديكارت »[١]

هكذا يتقاعد پسكال عن جهد يبدو له غير محدود ، و يعتصم بالحقائق التى يجىء بها الدين : فتلك حقائق أقل ما فيها أنها حافلة وافيــة مطلقة

---

(١) « ديكارت » Descartes (١٥٩٦ — ١٦٥٠) أكبر فلاسفة الفرنسيين ، ومن أقوى العبقريات الفكرية فى جميع فروع المعرفة الإنسانية . كان عالماً هندسياً كبيراً : اخترع الهندسة التحليلية ؛ وكان عالماً طبيعياً كبيراً أيضاً : كتب الرسائل فى « البصريات » و « الآثار العلوية » و « الميكانيكا » . ويعد ديكارت زعيم المذهب العقلى فى الفلسفة ؛ وهو أول من ألف المؤلفات الفلسفية باللغة الفرنسية . وأشهر كتبه : « المقال فى المنهج » و « التأملات » و « رسالة الانفعالات » . ويلقب ديكارت بأبى الفلسفة الحديثة ؛ وأغلب الفلاسفة المحدثين ، مهما تختلف نزعاتهم وتتشعب طرقهم ، هم تلاميذه وأبناؤه الروحيون . — المعرب .

حاسمة . ولكي يحطّم الوثبة الباطنة التي دفعت به بادئ الأمر إلى غزو السكون العقلي ، كان لابدّ له ، وهو ذلك العالم العبقري ، من بذل جهد عنيف أليم . وبهذا الجهد نستطيع أن نقيس المسافة الفاصلة بين المثل الأعلى اللاهوتي والمثل الأعلى العلمي : ففي مجال اللاهوت يمتلك الإنسان الحقيقة ، ويستمتع بهذا الامتلاك ؛ أما في مجال اللاهوت فيطلب الإنسان الحقيقةَ ويستمتع الذهن بهذا الطلب نفسه . واللاهوت يجعل الكرامة الإنسانية في تلك الراحة التي يفيضها على النفس يقينُ الإنسان بأنه يعرف كل ما يهمّه ؛ في حين أن العلم يضعها في تلك الوثبة التي يولدها اليقين بأن الإنسان محتاج دائماً إلى أن يتعلم .

يقع پسكال بين هذين المثلين الأعليين ، فيتردّد ويتألم ، وينتهي به الأمر إلى أن ينحاز إلى جانب الاعتقاد . لقد كانت مجتمعاتنا الغربية نفسها ، قبل القرن السابع عشر بزمان طويل ، تواجه المشكلة عينها : كان يوجد في العصر اليوناني الروماني رغبةقوية دفعت العقول إلىالبحث عن الحقائق العلمية . وكانت تلك الرغبة لا تزال ذات تأثير فيالعهد الذي كانت فيه « المدرسة الإبيقورية »[1] تجاهد لتحصيل صورة عقلية

---

(١) « المدرسة الإبيقورية » L'école épicurienne سميت كذلك نسبة إلى « ابيقور » الفيلسوفاليوناني المشهور (٣٤١ ـ ٢٧٠ ق م) .شهد إبيقور في شبابه ما ينجم عن الخرافات من أذى وبلاء ، فأراد أن يخلص الناس منها بالفلسفة وأقام لذلك مذهباً من ثلاثة أجزاء : جزء في المنطق وهو ذو طابع حسي ؛ وجزء في الطبيعة ، وهو نظرية في الذرات منقحة ، وجزء في الأخلاق وهو أخلاق اللذة ، ولكنه يقصد لذةً مختارة ومفهومة على وجهها الصحيح . كان « إيقور » رجلاً صالحاً حسن السيرة ، وكان حكيما في حياته وفي موته أيضاً . ـــ المعرب .

للكون. ثم فترت تلك الحماسة الجميلة ؛ حتى أن التمدن القديم لما دخل بلادنا فقدَ نوازع الفتح العقلى ، ووقف تقدم العلوم ، وانثنى الفكر على نفسه . فلم كان هذا ؟

لا يستطيع المؤرخ إلا أن يلاحظ أن ذلك العصر الذى انحط فيه الروح العلمى هو العصر عينه الذى برزت فيه على مسرح العالم الرومانى الأسرارُ التى جاءت من الشرق : ذلك أن «إيزيس»[1] و « قيبيل » Cybèle [2] و « أتيس » Attis [3] و « مِـثرا » Mithra [4] — وهى طلائع المسيحية — لا تكتفى بأن تكفل للناس الخلاص والنجاة والوعد بالنعيم المقيم فى دار الخلود، بل تعطيهم أيضا تفسيراً للعالم وعلما فلكيا مقدسا حاسما يمكن أن يُلقَّن فى بضع ساعات. بين هذه الضروب من الوحى والإلهامات التى تقدم الغبطة الوادعة غبطة اليقين الذى يناله الإنسان بغير جهد ، و بين المناهج المتشددة التى تدعو إلى دراسة الوقائع وتقصد إلى المشكلات

---

(١) « إيزيس » إلاهة مصرية قديمة : أخت « أوزيريس » وزوجته وتمثل فى الأساطير المصرية وفاء الزوجية ووفاء الأمومة . وبهذا السمو الأخلاقى تتميز « إيزيس » عن آلهة الأسيويين واليونانيين الذين كانوا فى الغالب ميالين إلى الخلاعة والفسوق — المعرب .

(٢) « قيبيل » Cybèle أم الآلهة فى الأساطير اليونانية والرومانية .

(٣) « أتيس » Attis أحد الرعاة فى الأساطير اليونانية . خان « قيبيل » فعاقبته بأن جعلته شجرة صنوبر .

(٤) « مثرا » أحد آلهة « الأفستا » فى دين الفرس القدماء ، ويمثل النور والحقيقة .

المتجددة بلا انقطاع ، وقف العالم الروماني فصنع ماصنعه بسكال من بعدُ : اختار الراحة . وصُبَّت اللعنة على المدرسة العظيمة « الإبيقورية » من المسيحية المنتصرة ومن « جوليان الرافض » [١] . وتغلب المثل الأعلى الذي رسمته «الأسرار». وكان لابد من انقضاء قرون قبل أن يستيقظ المثل الأعلى الآخر ويثأر لنفسه .

وقد تبدو الفلسفة لأول وهلة أقل بعدا من المثل الأعلى العلمي، لأنها هي أيضا تزهو بأنها فتح وغزو . ومن أجل هذا وجدنا بينهما من بعض الوجوه أمثلة من الاتفاق العميق . ولكن الفيلسوف كاللاهوتي شغوف باليقين التام المباشر ، ويلزمه مذهب ضافٍ حاسم . وهو يرضى أن يستند إلى العلم ، ولكنه كثير الجزع قليل الصبر إذا لم يجد جوابا على كل شيء ؛ يريد أن يسبق العلم ، ولكنه يُلجمه لكي يسبقه .

لا أعرف مثالا على هذه الحالة النفسية أجلى من مثال « أوجست كنت » [٢]. كان أكبر ماشغله أن يعطي العالم الحديث عقيدة جديدة وقوة روحية جديدة ، فالتفت إلى العلم ، ووسع مجاله بما أبدعه في علم الاجتماع، وقطع علائقه باللاهوت ، وطلق الميتافيزيقا . ولما تم له ذلك شرع في إقامة الفكر والعالم على قواعد وضعية . غير أنه هو أيضا بقي في هذا

---

(١) « جوليان الرافض » Julien l' Apostat امبراطور روماني عاش في القرن الرابع المسيحي : أراد أن يعيد الوثنية القديمة .

(٢) انظر هامش (٣) ص ٦٢ .

فيلسوفا ، فأراد شيئا حاسما . ولكن بينا كان هو يبنى و يتوقف ويشرّع ، كان العلم يتحرك و يتقدم و يقلب حقائق الأمس . فيضيق « كنت » بهذا ذرعاً ويتهى به الأمر إلى أن يضع الحدود لتطور علم الفلك ، و إلى أن يستنكر الرياضيات التى تجفّف الروح ، و إلى أن ينصح بأن لا تقرأ « محاضراته فى الفلسفة الوضعية » لأن امتلاك المذهب الصحيح ينبغى أن يكفى تلاميذه ، كما ينبغى أن يكون الإيمان بالعقائد كافيا للاهوتيين والمؤمنين .

و إذن فمثال أكبر فلاسفة العصر الحديث . يعيننا على أن نفهم أصالة المثل الأعلى الذى يستلهمه العلماء : فالعلماء كأولئك الذين سبقوهم ومهدوا لهم الطريق يجعلون الفكر صميم الكرامة الإنسانية ، ولكنهم يرون ذلك الفكر وثبة موصولة و بناءً تدريجيا لا حد له . وهذا السير الظافر للعقل ، وهذا « العدول عن الراحة » هما فى نظر العلم مدار عظمتنا الحقيقية .

نحن بحاجة إلى أن نبيّن ما يمكن أن يكون لذلك المثل الأعلى الذى يتضمنه النشاط العلمى من أثر فى حياة الجماعات ؟ أعتقد أن ذلك الأثر يتلخص فى جملة : متى كانت الكرامة الإنسانية فى صميمها عبارة عن الجهد الموصول للمعرفة فإن مهمتنا الأولى أن نعمل بحيث يكون للناس جميعا نصيب فى هذه الكرامة .

ويبدو لى أن من شأن هذه الفكرة وحدها أن تغير وجهة نظرنا الراهنة إلى أهم المشكلات العملية :

إن الحاجات المادية التى لم يتيسر لنا بعدُ أن نرضيها ، قد تحمل كثيرا من الناس على الاعتقاد أخيراً بأن مهمتنا الجوهرية هى النظام الاقتصادى ، وتكاد تسوقهم إلى أن يروا فى الإنسان آلة للإنتاج وآلة للاستهلاك ، وتجعلهم يظنون أن الإنسان يكون قد قام بأكبر قسط من الجهد الإنسانى يوم يتهيأ للناس جميعا أن يعيشوا فى ميسرة ورفاهية .

أما الأخلاق التى يستوحيها العلم فترمى إلى شىء أسمى من هذا : إنها تدعونا إلى أن نضع الاستمتاع الأعلى الذى هو المعرفة فى المرتبة الأولى عند جميع الأفراد .

أمعنى هذا أن هذه الأخلاق لا تعبأ بالتحرر الاقتصادى ؟ كلا . بل إنها تتطلبه وتتطلبه فى إلحاح ، لأن ذلك التحرر هو الشرط الضرورى الأول للتحرر العقلى . إنها لسخرية منكودة أن نقول لعامل يعود إلى منزله بعد أن أضناه كد آلى ، ورجل يأوى بعد الفراغ من عمله إلى مسكن قذر لا يدخله النور ولا الشمس : اشترِ كتبا وثقّفْ نفسك !

إننا إذا استثنينا بعض الأبطال الذين تعذبهم فكرة ما وجدنا أن العمل العقلى يقتضى شيئا من الاستقلال عن الهموم المادية: فلا يجوز أن نطالب من يكافح البؤس ساعة بعد ساعة أن تكون لديه حرية الذهن اللازمة للدراسة أو البحث . و إذن فالميسرة والفراغ يجب أن يكونا

مكفولين ، لا لبعض الناس بل لهم جميعا . ولـكن هذا التحرر من نير المادة ليس غاية فى ذاته، إنما هو وسيلة : هو الوسيلة لبلوغ حال يستطيع كل إنسان فيها أن يساهم بنصيب فيما يقوّم عظمة الإنسان .

وحيث يسود هـذا المثل الأعلى المتضمن فى العلم ، لن يقاس تمدن شعب من الشعوب بمقياس يقتصر على ما يبـذله من جهد للتوسع فى الصناعة أو التجارة ، بل يقاس تمدنه على الخصوص بما يحاول من جهد لنصرة البحث العلمى البرىء ولإذاعة ما كان يسميه فلاسـفة القرن الثامن عشر باسم « الأنوار » .

نعم إننـا سرنا خطوات فى هذا السبيل . ولـكن ما أبطأها من خطوات ! سيكون موضعاً من مواضع الدهشة عند العصور المقبلة أن تبسط مجتمعاتنا الغربيـة أيديها بالمال الوفير لإعداد معدات الهلاك وأن تقـتّر أشد التقتير حين يُطلب إليها أن تؤدى المهمة الـكبرى ، وهى تعميم المعارف الإنسانية . إن الذين يطلبون المال اليوم للبحث العلمى مضطرون إلى أن يصطنعوا بعض الحيلة ، فتراهم ينوهون إما بأنه مطلوب لمعاونة الصناعة، أو بأنه لازم لجعل الحرب أشد فتـكا . فمـا أعجبه من انقلاب فى القيم ! يضطر الناس إلى التماس الأعذار عند تقديم المعونة إلى الأمر الذى فيه كرامتنا ، ولا يريدون أن يدركوا أن مصلحتنا العليا فى أن نـكون أبرياء من كل غرض .

وكذلك شأن التعليم : إن من دواعى الفخر لعصرنا هذا أنه بدأ يعمل على إذاعته وتوسيع نطاقه . ولكن الناس يرون التعليم فى أغلب الأحيان سلاحاً ضرورياً للنضال من أجل الحياة ، و إعداداً فنياً لمهنة من المهن . أما أن العلم يمكن أن يكون هذا فمعلوم لكل واحد . ولكن العلم أولاً وخصوصاً هو شىء آخر ؛ ومَن أحبه لذاته فقد آثر ما هو خير وأهدى سبيلاً . وإذن فليست المشكلة الكبرى ولا المشكلة الحقيقية هى أن نُعطى الطفل واليافع ذخيرة من المعرفة نافعة ، و إنما هى أن نيسّر لجميع الأفراد أن يتذوقوا أمور الروح ، وأن يقدروا الحقيقة التى قام عليها الدليل . ولفظ «البيداجوجيا» نفسه ، إذ يقصر أمر التربية على الأطفال ، يبيّن إلى أى مدى ما زلنا دون مثلنا الأعلى هذا : لأنه إذا كان مدار كرامتنا على المعرفة ، أفليس واضحاً أننا ينبغى أن نتعلم فى كل سن ، وأن من حق الكهول فى هذا الاعتبار أن ينالوا العناية التى يظفر بها الشباب ؟ ولكننا نرى على الرغم من هذا أن أول جهودنا بهذا الصدد ضئيلة لا وزن لها . ليس لنا أن نزعم أننا نذيع فى العالم فتوحات العلم والروح العلمى . إن « الاتحاد العقلى » «L' Union Rationaliste» [1] قام إلى حد كبير مناهضاً لهذه الحال من قلة المبالاة . وقد كانت أكبر

---

(١) «الاتحاد العقلى» جماعة من العلماء والأساتذة مركزها باريس . تألفت للسعى إلى تحقيق الإصلاح الاجتماعى عن طريق نشر الثقافة العلمية فى جميع البيئات .

عنايته أن يعطى كل إنسان يهمه أنْ يتعلم، الوسائلَ اللازمة للوقوف على الروح العلمى . وحبذا لو بلغت تربية الكهل من القداسة عند المجتمع ما بلغته مهمة تربية الطفل .

نعيد ما سبق أن قلنا من أن صميم أى مذهب من مذاهب الأخلاق تصوره لمجتمع أفضل .

ولكن إزاء قلة المساواة التى هى القانون المنكود للحياة الاقتصادية وإزاء البؤس الذى مافتئ مخيما على ملايين البشر ، عُنى كثير من الناس من ذوى القلوب الكريمة بالمشكلات المادية عناية خاصة ، وتمنوا عالماً يكون فيه إنتاج الثروة وافراً وتوزيعها عادلا . وكل إنسان ذى قلب ينبغى أن يشاركهم فى هذه الرغبة وأن يعمل على تحقيقها . ولكن المثل الأعلى الذى يتضمنه العلم يدعونا إلى أن لانرى فى التحرر الاقتصادى إلا مرحلة أولى . وينبغى علينا منذ اليوم أن نرنو بأبصارنا إلى أبعد وأسمى : فإن عالما ثريا وسعيداً بثرائه فحسب ، ليس بعدُ إلا عالما بائسا . أما مانحلم به نحن فهى مجتمعات توزّع على الناس جميعا ضروب الثقافة ومناهج المعرفة ، وإنسانية قد تحررت من المشاغل المادية ، فاستطاعت أن تفرغ لتوفير كرامتها، أى لتوفير معارفها .

الفَصلُ السَّادِسُ

مبدإ الوفاق

المثل الأعلى الثانى الذى ينطوى عليه النشاط العلمى هو الوفاق والائتلاف . ليس العلم ابتداعا عقليا شخصيا قد يعجب هذا ولا يعجب ذاك ، أو يقنع واحداً ولا يقنع آخر ، وإنما قانونه أن يؤلف بين العقول فى كل مكان .

وليست هذه الرغبة جديدة : فقبل العلم قامت أديان وفلسفات لم تخلُ من رغبة فى التأليف بين النفوس وإشراكها فى تقديس حقيقة واحدة . ولكن ماالذى حدث لهذه المطامع الصافية ؟

فى هذه البلاد التى نعيش على أرضها أقبل دين « الدرويد »[1]

---

(١) « الدرويد » Les Druides قساوسة فى دين الغاليين القدماء ؛ ولم يكن لهم معابد ، وإنما كانوا يجتمعون فى الغابات ، وكانوا عند اشتداد الخطوب يقدمون ضحايا من البشر تكفيراً عن الذنوب . ولما دخل الرومان بلاد الغال قضوا على دين الدرويد ــ المعرب .

ودين « أوغسطس » (١) ودين « قيبيـل » ودين « مِثْرا » لفتح العالم. وقد انقضت هذه الأديان كلها ولم تعدْ اليوم إلا موضوعا لدراسة المؤرخ : ونهضت المسيحية بدورها فقدمت ـ كما ورد فى الإنجيل الرابع ـ « النور الحقيقى الذى يهدى كل إنسان يأتى إلى هذه الدنيا » . ولكن هـذا النور لم يقبله الناس جميعا وإن كان قد قدم إليهم أجمعين : فلم تجتذب المسيحية إليها بنى إسرائيل ولا المسلمين ، ولم تستطع أن تحمى نفسها مما توالى عليها من هجمات المنكرين . وقد ظن رجال الإصلاح الدينى أن تجديد المسيحية يجعلها دينا عاما شاملا ، فكان كل ما وفقوا إليه أن شطروا العالم الكاثوليكى القديم شطرين . وعندئذ نهض مفكرون فأدلوا بدلوهم فى الدلاء ، فظهر دين « ڤلتير » (٢) ودين « روسو » (٣)

---

(١) « أوغسطس » Auguste إمبراطور رومانى من أقرباء يوليوس قيصر . كان اسمه أولا « اكتاڤيوس » ثم أبدل بأوغسطس . تولى الحكم الثلاثى مع « أنطونيو » و « ليبدوس » ثم استقل بالأمر بعد موقعة اكتيوم . وكان عهده من أزهى عصور رومة (٦٣ ق م ـ ١٤ م) ـ المعرب .

(٢) « ڤلتير » Voltaire (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) من أكبر كتاب فرنسا . كانت حياته الطويلة حافلة بالأحداث والمغامرات . من كتبه التاريخية « عصر لويس الرابع عشر » و « شارل الثانى عشر » وله « القاموس الفلسفى » المشهور . وكتابات « ڤلتير » تغرى بالقراءة لطلاوتها وتنوعها ، ولما فيها من تهكم لاذع وما تفيض به من حب للحرية والتسامح ـ المعرب .

(٣) « روسو » Rousseau كاتب فرنسى كبير ، أولع بحب الطبيعة والخير والحرية ، وكان له أثر بعيد فى أهل عصره . أهم كتبه « العقد الاجتماعى » الذى كان له أثر مباشر فى الثورة الفرنسية . نقم روسو على ما رآه من فساد المجتمع فى زمانه فكان يحلم بإصلاحه والعودة بالناس إلى حال الفطرة الخالصة من شوائب المدنية المعرب

الطبيعي والمسيحية الجديدة عند « سان سيمون » [١] والدين الطبيعي عند «أوجستُ كمْت» . وكانت رغبتهم جميعا أن يؤلفوا بين الناس، وتجلت عندهم جميعا أفكار طيبة كريمة جريئة ؛ ولكن ظهر أيضا عندهم جميعا عجز عن التوفيق بين النفوس والحصول على ذلك الإجماع على الرأى الذى هو شرط للشمول والكلية . لقد نظرنا إلى فرنسا ؛ ولكنا إذا نظرنا إلى بلاد العالم الأخرى شهدنا عين ما شهدنا فى فرنسا : إن الأديان الكبرى قد تنازعت الوجدان الإنسانى . ولكن حدث مفارقة مثيرة للأسى : فقد حملتها نفسُ رغبتها فى جمع الكلمة على مناضلة بعضها بعضا ، ودفعت إرادةُ الاتحاد بالناس إلى المعركة !

فهل كان الفلاسفة أسعد حالا ؟ قد نكون أميل إلى الاعتقاد بهذا ، مادام كثيرون من الفلاسفة يفخرون بأنهم يصطنعون العقل وحده . ولكن إخفاقهم ، على نحو ما ، كان أجلى وأخطر من إخفاق الأديان . ففى حين أن بعض المعتقدات تسوق ملايين من النفوس إلى التحمس لها والذود عنها ، وفى حين أن الدين البوذى والمسيحى والإسلامى قد غزا كل منها أرجاء فسيحة من العالم، نجد فى أثينا الصغيرة سقراط [٢] يصطدم

---

(١) « سان سيمون » Saint - Simon (١٧٦٠ ـ ١٨٢٥) مصلح فرنسى صاحب مذهب اشتراكى وفلسفة دينية وضعية ، وقد أخذ عنه « أوجست كمت » وتأثر به . ـ المعرب .

(٢) « سقراط » (٤٧٠ ـ ٤٠٠ ق م) حكيم اليونان الكبير . لم يودع تعاليمه الكتب والأوراق وإنما حفظ عنه تلاميذه ذكريات محادثاته مع الناس من =

مع السفسطائيين [١] وأرسطو مع أفلاطون . وفى زمن واحد وتحت سماء واحدة قامت الرواقية معارضة للإبيقورية ، والدجماطيقية معارضة للارتيابية [٢] ، والحرية مناهضة للجبرية ، والمذهب العقلى مناوئا للمذهب البراجماطيقى [٣] . وأشد ما يدعو إلى القنوط أن هذه المذاهب التى وقفت يعارض بعضها بعضاً فيها كلها ما يخلب النفوس، ويحملها على السير معها. أعتقد أن من العسير على إنسان أن لا يحب أفلاطون وأن يأبى أن يتابعه حتى فى السبل التى يسلكها فكره الجرىء . ولكن من الحق أيضا

= مختلف الطوائف . كان سقراط من أوائل من تكلموا فى خلود الروح وفى الواجب وفى العناية الإلهية . وهو مؤسس علم الأخلاق ومنشىء الفلسفة المثالية وفلسفة الصورة التى سيطرت على التفكير فى القرون الوسطى بجهود أفلاطون وأرسطو والإسكندرانيين . وقد بلغ أثر سقراط فى الأجيال الإنسانية أثر الأنبياء وأصحاب الأديان ــ المعرب .

(١) « السفسطائيون » جماعة من خطباء اليونان عاشوا فى القرن الخامس قبل الميلاد . لم يكونوا يحفلون بالحق من حيث هو فاستخدموا مواهبهم الكلامية فى مناصرة أية دعوى وترجيح أى رأى ، لا يبالون إلا بالنجاح والتغلب على الخصوم . وملخص مذهبهم إنكار ما يسمى بالحق أو العدل المطلق ، إذ الانسان عندهم مقياس لجميع الأشياء . وقد حمل سقراط على السفسطائيين وفند أقوالهم ــ المعرب

(٢) « الدجماطيقية » Dogmatisme و « الارتيابية » Scepticisme مذهبان متعارضان : الأول يرى للعقل الإنسانى قيمة مطلقة ويعتقد بإمكان الوصول الى اليقين . والثانى ينكر إمكان العلم ، ويشك فى معرفة الحقيقة معرفة يقينية ــ المعرب

(٣) المذهب « البراجماطيقى » Pragmatisme مذهب فلسفى نادى به « وليم جيمس » الأمريكانى ، وخلاصته أن جميع الحقائق الأساسية هى معتقدات عملية ؛ وأن فكرنا كله ينزع دائماً إلى العمل ولا يبرأ من الغايات ؛ وأن معيار الصدق والحق فى كل فكرة أو رأى هو المنفعة العملية ، وأن المعتقد يكون حقاً بقدر ما ينجح وفى الزمان الذى ينجح فيه ــ المعرب .

أن «سپينوزا»[١] إذا استولى على شخص أخذ بتلابيبه وساقه حتى نهاية الطريق الذى رسمه. ثم نقرأ «كانت» و«أوجست كت» وغيرهما فتملك عبقرياتهم نفوسنا فإذا نحن لها صاغرون. ولكن تعاقب اعتناقنا لهذه النظريات المتناكرة خزٍ للفلاسفة ودمار للفلسفة: لأننا قد سلكنا الطريق مؤملين أن نصل إلى نظرية واحدة لا يدانيها غيرها فيلتقى الجميع عندها إخواناً متصافين. غير أن المسالك التى كانت تبدو مؤدية إلى تلك النظرية قد بلغت من التباعد والاختلاف حداً يترك الإنسان، على شدة ما عانى من تعب وطول مطاف، أكثر زلزلةً وارتياباً، ويدع الناس أشد تفرقا وانقساما.

ومعقد الطرافة فى العلم أنه يبدو، وسط هذه الانقسامات، عاملاً فعالا على جمع الكلمة والوفاق. إن غير العلم يدعو إلى الاتحاد، أما هو فقد أوجده. فى العلماء كاثوليكيون و پروتستانتيون وإسرائيليون، وفيهم انجليز وألمان وفرنسيون. ولكن ليس هنالك هندسة كاثوليكية أو پروتستانيتية أو إسرائيلية، ولا علم طبيعة ألمانى أو إنجليزى أو فرنسى! والفكرة نفسها سخيفة. وقد نتصور أقوالا دينية أوفلسفية تتصل

---

(١) «سبينوزا» Spinoza (١٦٣٢ ــ ١٦٧٧) من أكبر فلاسفة العالم. كانت حياته حياة زهد وتأمل. بدأ من فلسفة ديكارت والفلسفة اليهودية وانتهى إلى القول بوحدة الوجود. قال فيه بعض الكتاب إنه «رجل سكران فى الله». أشهر كتبه: «الأخلاق» و«رسالة عن الله والإنسان والنعيم» و«الرسالة الدينية السياسية». ــ المعرب.

اتصالا وثيقا بالهند أو بالغرب ، ولكنا لا نتصور برهانا من براهين علم الرياضة يكون عند المسيحي غيره عند البوذي ، ولا نتصور تمحيصا تجريبيا مما يقوم به علماء الطبيعة يكون مقبولا عند المعجب بفلسفة «كانْت» ولا يكون مقبولا عند المعجب بمذهب « سپينوزا ». بل إن الفلاسفة الذين يتجادلون اليوم في أمر العلم وهل له قيمة مطلقة أم لا ، هم على الأقل متفقون على العناصر التي يتكون منها العلم ، وليس بينهم خلاف إلاّ على الحدود التي يقف عندها سلطانه ، أما هذا السلطان نفسه فلا يتنازعون فيه.

لقد بلغ من اعتيادنا لهذا الوفاق الذي مصدره العلم أن أصبحنا لا نلقي إليه بالاً ، وأصبحنا نتكلم عنه كما نتكلم عن أمر بسيط جدا ، بل قد لا نتكلم عنه إطلاقا . ولكن لنرجع بالأمر إلى التاريخ الإنساني : بذل المنقطعون للبحث غاية وسعهم ، مدى قرون عديدة ، لكي يكتشفوا مبدأ يستطيع أن يؤلف بين الناس ؛ وانفقوا في هذا الجهد ما يملكون من مواهب وعبقريات ؛ وطرقوا كل باب من أبواب النفس . ولكن الوفاق المنشود لم يتحقق في أي مجال ، بل عظم الخلاف واشتدت مرارته حتى ضاع الأمل في حصول الاتفاق . وبينا الناس على هذه الحال إذ ظهر حدث جديد ، حدث عقلي صاف ، أخرج دون قهر ولا اضطرار ، مجموعةً من المعارف اليقينية مشتركةً بين الناس ، وجعل حقيقة واقعة ما كان يبدو أمرا مستحيلا . كانت الحدود الدينية والفلسفية والسياسية والاقتصادية

تبدو على الدوام مفرقة للناس ؛ و إذا بحقيقة تظهر فتتجاوز تلك الحدود، لأنها لم تعد حقيقة شعب من الشعوب ولا جنس من الأجناس : إنها نور يهدى كل إنسان يأتى إلى هذا العالم ، كما ورد فى كلمة الإنجيل الرابع .

تتصور الآن المعنى الأخلاقى لـكل هذه القواعد الدقيقة التى تسيطر على العمل العلمى . إذا كان العلم يفرض على نفسه هذه الاحتياطات الكثيرة فذلك لأنه لا يبغى أن يصل إلى الحقيقة فحسب ، و إنما يريد أن يبرزها للناس أجمعين . لايكفيه أن يؤمن الناس بما يقول ، بل يود ألا يصدقوه إلا عن أدلة ذات وزن ورنين. فهذه البراهين المضبوطة وتلك التمحيصات التى تمت بعد جهد جهيد لاتطيقه أحيانا روح الرقة أو الروح الشعرية ، هى أسمى صورة من صور الإيثار: إنها تنطوى فى وقت واحد على موافقة الغير على الأشياء الجوهرية ، والرغبة فى أن لاتكون تلك الموافقة موافقة المفاجأة ، ولا أن تكون تقربا طارئا ، بل أن تكون تعبيراً متينا عن مشاركة حقيقية .

إن احترام الإنسان لأخيه الإنسان وحبه إياه هما روح البحث العلمى ، لأن المرء لا يستطيع أن يهب غيره من الناس هبةً أثمن من أن يقدم لهم حقيقة تصبح ملكا لهم ، وتجعلهم ــ بأرفع ماتنطوى عليه نفوسهم ــ إخواناً متآلفين .

لاحاجة بنا إلى أن نتوسع فى بيان النهج الذى يسلكه هذا المثل الأعلى

المتضمن في العلم، ولا القبلة التي يوجه حياة الناس إليها : يصبح التماس الوثام بالروح مبدأ من المبادئ العليا للأخلاق ، وتكون خطتنا الكبرى في محبة بعضنا بعضا أن يقنع بعضنا بعضا في أي مجال مهما يكن . إن الاتفاق القائم على القوة واهٍ ، لأن القوة لاتبلغ منا ما هو في الصميم ؛ والاتفاق القائم على المصلحة لايمكن أن يكون إلا وضيعا جزئيا ، لأن الإنسان لايكون عظيما إلا بالأشياء البرأة من المصلحة ؛ والاتفاق القائم على العاطفة أنبل ولكنه هزيل ، لأن العاطفة عمياء أحيانا . أما الاتحاد الذي منشؤه الرضى والإذعان لحقيقة أيدها البرهان السليم فأساسه متين وليس للصدفة عليه من سلطان .

إننا اليوم لم نتفق إلا على جملة من الحقائق المتصلة بالمادة وبالحياة . ومن نكد الحال أننا في كل ما عدا ذلك نجد أنفسنا مضطرين إلى البت في مشكلات لم يمسها العلم إلا مساً رفيقاً . من أجل هذا كنا متفقين في بعض الأمور مختلفين أشد الاختلاف في أمور أخرى . وأقل ما يقال إن المثل الأعلى المنطوى في النشاط العلمي يدلنا على الطريق الذي ينبغي أن نسير فيه لتلطيف حدة هذا الاختلاف : وهو أن نزيد عدد الحقائق اليقينية المشتركة ، وأن نطلب إلى العقل في جميع المناظرات أن يعطينا مبدأ الاتفاق .

إني ما زلت أذكر واقعة حدثت عقب الحرب العالمية هي في نظري مما يهز القلوب ويحمل مغزى كبيرا : كانت حفائظنا مستثارة لقرب عهدنا

بما أصابنا جميعا من أرزاء الحرب . وكان بعض الضالين من أصحاب النظريات يدعون إلى تذكر الاحقاد ، بل كان من الفلاسفة من جعلوا همهم النيل من فلسفات ما وراء الرين . وجاء «أينشتين»[١] إلى باريس ليبسط بنفسه مذهب النسبية . لا أدرى أصحيح ما قيل من أن بعض العلماء عندنا بدا لهم أن يعارضوا فى مجيئه ، ولكن الذى أعلمه ، لأنى رأيته بعينى، هو أن «أينشتين» حين تكلم فى «الكوليج دو فرانس» لم يجد إلا فرنسيين عليهم علائم الجد والانتباه . ولم يعدْ أحد منهم يفكر ، منذ اللحظة التى بدأ الرجل فيها الكلام ، أنه ينتمى إلى شعب هو « عدو » لفرنسا : لأن العلماء الذين اجتمعوا فى حجرة «الكوليج» لم يكونوا يرون من عدو سوى الجهل والخطأ . كان فى النظرية المبسوطة ما يدهش ويحير الأفهام إلى أقصى حد ، ولكن الجمهور على الرغم من ذلك كان يصغى ويتردد ويتابع .

فى الخارج وفى مناظرات أخرى تبدو أيسر حلا نشهد تصادم المصالح وتصارع العواطف . لكن كل هذا الضجيج قد انعدم على عتبة الحجرة الضيقة التى احتوت رجالا كانوا فى طريقهم إلى الاتفاق على صورة عقلية للكون أكثر اتساقا . وأظن أن كثيرين كانوا يفكرون معى بأن العلم، غداة المجزرة البشعة ، قد ثأر لنفسه ، وأعاد إلى الناس أسباب الأمل .

---

(١) « أينشتين » Einstein (ولد سنة ١٨٧٩) . عالم رياضى طبيعى من أصل ألمانى (وتجنس أخيراً بالجنسية الأمريكية) . اشتهر بنظريته فى « نسبية » الزمان . — المعرب .

الفصل السابع

مبدأ الحرية

المبـدأ الثالث الذى يتضمنه الخلق العلمى هو احترام الحرية . وهـذا الاحترام تنكره أديان كبيرة ولا ترى له مبررا : فالمسيحية الناشئة وإن كانت قدمت إلى العالم جملة من المبادئ هى من أجمل ما يمـكن أن يعبر عن بغض العنف ، إلا أنها منذ نشأتها تشدد النكير على من لا يؤمنون ؛ ومنذ سيطرت الـكنيسة فى قلب الامبراطورية الرومانية فرض قانون تيودوس (Code théodosien) على جميع الوثنيين الممارسين لشعائرهم عقوبة السيف البتـار « gladio ultore sternatur » ؛ وفى القرون الوسطى كان الملاحدة يعاقبون بالموت وكان غير المؤمنين موضع تشنيع ؛ وانقض الصليبيون على المسلمين وعلى الألبيين « Les albigeois » ؛[1] وفى القرن السادس عشر قامت المعارك بين البروتستانتين والـكاثوليكيين،

---

(١) فرق من خوارج المسيحيين فى جنوب فرنسا .

وكانوا مختلفين على تأويل بعض النصوص ؛ وفى القرن السابع عشر صدر فى فرنسا مرسوم ملكى يعاقب بالموت جميع المؤلفين الذين تنزع مؤلفاتهم إلى « إثارة الخواطر » .

درج الناس على أن يتحدثوا عن أعمـــال العنف هذه وأن يصفوها بأنها مجانبة للأخلاق : وهذا هو الأثر عينه الذى تتركه فى نفس رجل العصر الحديث . ولـكن العلم أكثر اطمئنانا ، وهو فى رغبتـه فى الفهم يرى فيها نتائج وخيمة ولـكنها منطقية لأخلاق مخالفة لأخلاقه . وهـذه الأخـلاق تنشأ من الاعتقاد بأن الحقيقة وحدها لها حقوق ، وأن الخطأ لايمكن أن يكون له حقوق . وحتى فى أيامنا هذه يُذاع هذا المبدأ علانية فى منشورات بابوية مشهورة ! وينده‍ش الرجل غير المعتقد إذ يقرأ فيها أن حرية العقيدة والعبادات « زيغ وضلال » وأنها « استعباد النفس فى حمأة الإثم » . ولـكن لندخل فى روح النص : إن من يكتسب ، عنده اليقين التام المطلق أنه مالك للحقيقة ! فـكيف يعترف للفرد بحقه فى سلوك سبيل الخطأ التى هى سبيل الضلال ؟ وكيف يقبل حرية الشر ؟ فلو كانت الحقيقة التى يملكها حقيقة يقبلها الجميع طواعية لـكان كل التجاء إلى القوة أو إلى السلطة شيئا لا جدوى منه ولـكان بالتالى أمرا منكرا .

ولـكن لما لم تكن من هذا القبيل ، وكان من اللازم مع ذلك أن يقبلها

الناس ما دامت هى الحقيقــة ، فقد لزم تأييدها بمؤيدات خارجيـة .
فالعنف فى مذهب كهذا لا يمـكن أن يكون إلا شيئا لا مندوحة عنـه
و بداية للتساهل مع الشر؛ و إثبات المطلق يسوق منطقيا إلى إنكار الحرية.

ومن أجل هذا لم تكن الأديان وحدها هى التى تنكر الفكر أو تفتئت
على حقوقه : رأينا من الناس من استعمل وسائل العنف فى الدعوة إلى
آراء فلسفيـة عن تدبير المجتمعات ، ورأينا مِن صنّاع المذاهب الذين لا
يشكون فى أنهم على حق مَن لا يترددون فى استعمال القوة لمقارعة خصومهم!
وحتى حين تحول دمائة الخلق دون اصطناع السيف ، كثيرا ما نجـد
المخلصين من أنصار المذاهب المتعارضة يصطنعون ذلك العنف المقنّع الذى
هو الحقــد والذى هو السباب أيضا : يسبون خصومهم انتقاما لأنفسهم
من عجزهم عن اقناع غيرهم . فـكأن الحرية المنصوص عليها فى القوانين
تهجرها الأخـلاق الجـارية هجرا . ترى « چوليان الرافض » يلعن
«إبيقور» ، و«أوجست كنت» يلعن «چوليان الرافض» ، وترى ملايين
الناس ممن ليسوا «چوليان الرافض» ولا « كنت » يصبّـون أمثال هذه
اللعنات على من يسمونهم أعداء .

إن أكبر طرافة العلم أنه بقى دائما بعيدا عن لعن الخصوم ، بعيدا عن
تكفيرهم ، وأنه جعل الحرية قانونه .

قد يتوهم بعض الناس خلاف ذلك : يقولون لا وجود لحرية العقيدة في علم الهندسة ولا في علم الكيمياء ، لأن هذين العلمين يفرضان الحقائق عينها على جميع العقول . ولكن هذا لعب بالألفاظ : إن العالم لا يفرض على أحد من الناس براهينه، وإنما تفرض البراهين نفسها بنفسها إذا كانت متينة . ولا شيء هو أكثر حرية من الإذعان الذي يمنحه العقل هاتيك البراهين .

لا ينبغي أن ننظر إلى العلم بعين تلميذ من تلاميذ المدارس ، فنعتقد أنه موجود كله في تلك المختصرات التي ليست إلا دفاتر مدرسية مؤقتة ، والتي من عيوبها أنها تلفت عقول الشبان إلى النتائج التي ظفر العلم بها أكثر مما تلفتها إلى الظفر نفسه . وإذا أردنا أن نكتشف روح العلم العميقة وجب أن ننظر في البحث من حيث هو بحث ، أي في اللهيب الذي هو روحه . وهذا اللهيب حر ولا يمكن أن يكون غير ذلك: يواجه العلماء الحقيقية التي تنفلت ، فيترددون ويتحسسون ويراجع بعضهم بعضا ، ولا يمكن أن يخطر ببال أحد منهم أن يحد من حقوق فكر ما . من المشهور جدا أن احتكاك الأذهان المتيقظة يؤدي يوما ما إلى انبثاق النور الذي يخلق الوفاق واجتماع الكلمة . وليست الحرية التي يعترف العلم بها للجميع تساهلا مكرها ، وإنما هي أساس النشاط العلمي ، وهي شرط

النجاح . ومن أجل هذا قد تحتدم المجادلات العلمية بسبب التلهف على الحقيقة أو الخوف من الخطأ ؛ ولكن استقلال الجميع فى الفكر استقلالا مطلقا لا يمكن أن يكون موضوع شك .

وقد يعترض البعض على هذا أيضا قائلين إن الحقيقة متى تم ظهورها وجب على الجميع أن يذعنوا لها صاغرين ، وأنه متى أقفل باب المناقشة لم يبق للحرية أثر .

إن الاعتراض مما يسترعى الأنظار . ولكن طرافة العلم هنا أيضا هى أنه لا يعرف شيئا يغلق دونه باب المناقشة : ففى حين أن أديان المطلق وفلسفات المطلق تطلب قبل كل شىء مواقع حصينة يستطيع الفكر أن يقف عندها مرة واحدة وإلى الأبد ، نرى العلم لا يطلب إلا مواضع ارتكاز لوثبات جديدة على الدوام . وأجمل افتراضاته التى يرتب عليها معارفه مطبوعة بطابع « النسبى » و بالتالى بطابع « المؤقت » ؛ ولذلك لم يكن فى العلم شىء هو «حاسم» ، وليس فيه شىء إلا و يمكن وضعه موضع البحث . وما أبعد الساعة التى يستطيع فيها المهندسى أو الفيزيقى أن يقولا : « هذه الحقيقة قد كسبت وستغلق دونها أبواب الفكر » ! بل قد اعتدنا بالعكس أن نرى أشد الاكتشافات بريقا قد انبثقت من الاحتجاج على ما كان يبدو مستقرا مكين الاستقرار . ولقد شهدنا فى عصرنا هذا أمثلة

مشهورة حين تجاسرت نظرية « أينشتين » على مهاجمة فكرة المكان وفكرة الزمان . ومنذا الذى لا يذكر الضجة التى أثارها فى ذلك الحين بعض الفلاسفة بل و بعض العلماء أيضا ؟ كان يبدو أن مجددا جريئا قد جن جنونه فهاجم ما لا سبيل إلى مهاجمته . ومع ذلك فما أسرع ما أصبحت المجازفة الحمقاء باعتراف الجميع فتحا عظيما ! ولم يخطر ببال أحد حتى ممن صدمتهم النظرية أيما صدمة أن يرفع فى وجهها علم المعارضة باسم سلطة مقررة : إن من أشهر الأمور أن التجديدات العظيمة إنما مصدرها نوع من التمرد على ما يبدو حاسما قاطعا .

هذا التمرد أبوالفتوحات ، قد شعرنا به جميعاً ملء محاضرات «لانجفان» عن العلم والحتمية . وقد تبينا فى الاحتجاج الذى وجهه على النظريات التى من شأنها أن تنتقص من العلم ، وفى الحل الجرىء الذى قدمه بإزاء صعوبة مخوفة لكى يصون للعلم وظيفته وهى أن يجعل الكون معقولا ، قد تبينا ذلك الجهد الذى يتقدم دون أن يخشى أن يقطع صلته بأفكار يزعم البعض أنها مستقرة ، ويجترىء على مناقشة ما كانوا يظنونه فوق مواطن النزاع . وإذن فلا يقولن أحد لنا إنه قد يجىء يوم يكون فيه العلم مطمئنا إلى نتيجة من نتائجه فيقول : « لا مناقشة فى هذه المسألة » ويعدل عن الحرية . إن كل شىء يمكن أن يوضع موضع المناقشة ،

لأنه لا علم إلا بما هو نسبى ، ومن أجل هذا ستكون الحرية دائما ، فى مواجهة جميع المشكلات ، هى نفس قانون العلم .

على أن الوقائع فى هذه المرة أيضا تتكلم وتشهد بأن بين العلم والحرية وحدة لا تنفصم عراها : فبينما العقائد والمذاهب قد اعتمدت على العنف ظل العلم نقى اليدين من الدم المراق . وهذا يبدو لنا فى غاية البساطة حتى نكاد نغفل عن أن نلاحظه . ولكن ينبغى أن نعرف كيف ندهش مما يُدهش : فى حين أن كثيرا من الجهود الكريمة لإقامة الوئام بين الناس قد أفضت إلى كثير من الاضطهادات وكثير من الحروب وكثير من الأحقاد ، استطاع الجهد العلمى فى كثير من المسائل أن يكفل الوفاق بين الأذهان دون أن يعمد قط إلى القوة . إنما تغلبت النظريات العلمية الكبيرة بما أوتيت من فضائل خاصة ، فلم تحتج إلى تأييد الحكام ولا إلى تأييد الأغلبيات لتعينها على السيطرة أو الذيوع ، واختصت بميزة فريدة : وهى أنها أدخلت النظام دون أن تمس الحرية .

فأخلاق العلم تتضمن احترام الفكر المستقل . ولا حاجة بنا إلى أن نبين التجديد الذى يحدثه فى مجالات أخرى انتصار هذا المبدأ الذى أُعلن كثيرا وتجوهل كثيراً . لاحظنا فيما سبق أن من آمن بحقيقة مطلقة وسلطة معصومة لا يرى التسامح إلا شيئا لا محيص عنه . أما من أراد

أن يستلهم أخلاق العلم فيرى التسامح صورة متواضعة ناقصــة من صور احترام الفكر . إن صبرنا على عما يبديه غيرنا من آراء مخالفة لآرائنا شيء جميل ؛ ولـكنه قليــل . ينبغى ألا نصبر على ذلك كما نصبر على شر لابد منــه ، بل ينبغى أن نبتهج له ابتهاجنا لخير من الخـيرات ، لأن حرية التعبير عن الآراء ، مهما يلحقها من شوائب التطرف ، تعين الحقيقة على الظهور . وأخـلاق العـلم تريد أن تصـون هـذه الحرية من عـبث « الدجماطيقية » ومن عدوان الاستبداد ومن سطوة المال ، ذلك المال الذى نجده دائما على استعداد لأن يشترى وسائل التعبير عن الفـكر أو يشترى الفـكر نفسه .

ولنذهب أبعد من هذا فنقول إن المبـدأ الذى يستلهمه العلم بالفعل لا يقتضى أن نسمح لغيرنا من الناس أن يقولوا ما يجول بخواطرهم فحسب، بل يتطلب أن ننصت إليهم ، لا أقول بدون تحيز ، بل بذلك القدر من التعاطف الذى يصاحب كل جهد لتمام الفهم : فإن العالم إذا أراد أن ينقض نظرية تبدو له مخالفــة للوقائع المشاهدة إنما يبدأ بدرس تلك النظرية بما يستطيع من تعمق واستقصاء ، فيأخذ منها الصحيح النافع ، ويحاول له وهو يتجاوزها أن يقدم لها أطيب التحية ؛ فهو يحيى فى خطأ اليوم حقيقة الأمس ، وهو يبذل الجهـد ليبـين ، فى الدعوى التى تبـدو له أمعن الدعاوى فى البطلان ، الهمّ المشروع الذى كان سبب وجودها . وليس هذا

منه تأنقا ذهنيا، ولكنه شدة عناية بأن لا تفلت منه أدنى ذرة من حقيقة ممكنة .

وهذا الجهد المبذول للفهم مع المشاركة الروحية والتعاطف أليس يمكن أن يمتد إلى جميع الأفكار ؟ يجوز لنا على الأقل أن نلاحظ أنه قد بدأ يثبت كيانه في مجال من المجالات التي سادتها روح الجدال زمانا طويلا . بل إننا بالأمس ، رأينا كثيرين من العقليين يردون على ماوجه إليهم من هجمات ، فيقفون من بعض الأديان موقفا لم يكن بعدُ موقف العالِم. نعم إن عظماء أصحاب الجدل من أهل القرن الثامن عشر كانوا على دراية بتاريخ المسيحية أكثر مما يظن غالب الناس . ولكنهم كانوا يهاجمون إذ يردون عن أنفسهم هجمات الخصوم : فرأى بعضهم أن الأديان إنما هي استغلال منظم لملكة التصديق عند الإنسان . فلما تقدم روح النقد وتقدم علم الاجتماع أخذت تتغير هذه الحال شيئا فشيئا . إن العالم الذي يفرغ لدراسة الأديان بروح العالم يرى فيها مبتدعات اجتماعية خطيرة لايستهان بها ، ويجعلها موضوعا لدراسة منزهة عن الهوى، ولو لم يكن يقبل ما فيها من عناصر فائقة للطبيعة أو عقائد لم يقم عليها دليل عقلي . وإذا رأى نفسه بإزاء معتقدات أو شعائر تصدم نزعته العقلية فلا يمكنه أن يقبلها، قال في نفسه إن هذه وقائع اجتماعية ، وهي وقائع كان لها علل ، ثم يحاول قبل كل شيء أن يتمكن من فهم هذه الوقائع وأن يبرز عللها .

و إذا وجد نظامايبدو له مشئوما فى الوقت الحاضر أخذ يتساءل عن الحاجات التى استطاع أن يقضيها فى الماضى . و بالإجمال لما كان العالم معنيا بأن يفهم فهو حذر من كل هوى قد يلقى على الحكم غشاوة . إن قليلى التصديق هم فى أغلب الأحيان الذين استطاعوا أن يوضحوا المهمة التى قامت بها الأديان فى تاريخ الإنسانية ، لأن الروح العلمى يذهب إلى أبعد من التسامح : فهو لا يقنع بتطليق الكراهية أو الازدراء باعتبارهما سبة للفكر ، بل ينكرهما أولاً بوصفها عقبة من العقبات فى سبيل الذهن .

الفصل الثامن

مذهب الحتمية والتسامح

لم أعرض إلى الآن فيما أسلفت من حديث إلا للمبادئ المتضمنة فى تطور العلوم التى بلغت اليوم سن الرشد ، أى للعلوم الطبيعية والبيولوجية.

فإذا قبلنا أن ننظم علم الاجتماع فى مصاف تلك العلوم ظهر لنا مبدأ رابع وهو التسامح .

ذلك أن كل بحث اجتماعى يبدأ بالطبع بمذهب الحتمية (déterminisme) أعنى بالفكرة الذاهبة إلى أن الوقائع الاجتماعية كغيرها من وقائع خاضعة لقوانين . يستطيع الفيلسوف أن يضع فى كل فرد من الناس إرادة حرة مستقلة (autonome) كما أن المنجم يضع فى كل كوكب أو فى كل نجم إرادة عليا لإله من الآلهة . ولكن كما أن علم الفلك الحديث يفسر حركات القمر بقوانين متعقلة ، لا بمشيئة « أرتميس »[1] كذلك يأبى علم الاجتماع أن يفسر الوقائع الإنسانية إلا بمعنى قوانين متضمنة فى الأشياء.

---

(١) « أرتميس » Artémis اسم يونانى لديانا إلهة الصيد .

وليس من قصدى هنا أن أفتح من جديد باب المناقشة فى المعنى الميتافيزيقى للحرية ، فإنها مناقشة لا طائل منها بالضرورة : ولكنى أمضى إلى أبعد من هذا فأقول إننى أسلم بأن الجواب الوحيد الذى يمكن أن يوجه إلى أنصار الحرية هو تزايد القوانين الاجتماعية التى محصت تمحيصا حسنا . والواقع أن ما شاع عندنا إطلاق اسم الحرية عليه إنما هو جهلنا بالعلاقات بين العلل ومعلولاتها . ولما كان علم الاجتماع علما ناشئا ، ولم يمحص من هذا القبيل إلا عددا قليلا جدا من العلاقات فقد كان طبيعيا أن يبخل عليه المحتاطون والمتشككون بالثقة التى منحوها علم المادة . فواجبنا نحن أن ندفع هذه الشبهات بالبحوث والنتائج .

ولكن الذى أريد أن أبينه ها هنا أن كل تقدم فى مذهب الحتمية يؤدى بنا ضرورة إلى وقوف الإنسان موقف التسامح بازاء الناس جميعا.

كان أسلافنا يرون أن الرجل الذى يقترف الإثم حرٌّ فى أن لا يقترفه، وأننا نؤدى واجبنا نحوه حين ننبهه ونحضه ونوقفه على جلية أمره : فإذا أعرض عن النصح كان مخطئا ، وكان من حقنا أن نعامله معاملة الآثمين ؛ و إذا قضت العدالة أن يكفر عن سوءاته فلينزل به العقاب ، أو فليكن موضع الاحتقار على أقل تقدير .

ومن هنا جاءت الأخلاق الإنسانية التى ترفع قدر الصالحين وتندد

بالطالحين ؛ ومن هنا كانت الأخلاق « السماوية » التي تهب السماء للمصطفين وتجعل جهنم مأوى للمغضوب عليهم والضالين .

ولكننا متى سلمنا بأن الجريمة نفسها واقعة محتومة فقد وضح أننا إذا مقتنا الجريمة لم نعدْ نستطيع أن نمقت المجرم ، بل كان خليقا بنا أن نرثى له وأن نعده أول ضحايا الشر الذي قدمت يداه .

ولنضرب مثلا بصبي فى الخامسة عشرة من عمره قد سرق فزجره القاضى وأرسله إلى إصلاحية الأحداث : فهذا أمر منطقى جدا مادام القاضى بصدد كائن حر . وإذا اقترف الصبي سرقة أخرى بعد ذلك بعام فمنطقى أيضا أن يزجره القاضى مرة أخرى وأن يوقع عليه عقابا أشد .

ولكن العالم الآخذ بمذهب الحتمية يلاحظ أن ذلك الصبي « المجرم » ابن لأب سارق ولأم سارقة ، وأنه قد فسد قبل أن تكون لديه فكرة عن الخير والشر . والعالم يلاحظ أن الأماكن التي يسمونها «إصلاحيات» ليست منظمة تنظيما حسنا ، وأنها تزيد فى فساد من يراد تقويم اعوجاجهم . ويلاحظ العالم أن نظام العقاب يخلق مجرمين عائدين (récidivistes) ! فماذا يصنع ؟ بدلا من أن يزدرى الطفل ، وبدلا من أن يوقع عليه العقاب ، يطلب أن يُعنى المجتمع عناية أكبر بأطفال المجرمين ، ويطلب أن تصلح إصلاحيات الأحداث ، وأن يوضع حد

للإسراف فى العقاب . وبالإجمال يطالب العالم أن لا ننظر إلى الطفل نظرتنا إلى « مجرم » يستحق المقت أو الاحتقار ، بل نظرنا إلى مريض يستحق الرحمة والعلاج .

يعترض الكثيرون بأن هذه النظرة المتسامحة قد يكون من شأنها أن تقلل سخطنا على الجريمة ، وأن تشجع أهل الشر على الغواية . ولكن الاعتراض ضعيف كل الضعف. هل قلّ فزعنا من وباء الطاعون منذ أن عدلنا عن رأينا فى أن المصاب به آثم حل به عقاب الآلهة ؟ وهل أمسينا أقل فزعا أو أقل نجاحا فى كفاحنا للأوبئة منذ أن أصبحنا لا نكافحها بالصلوات لأبولون أو لإسقولاب [١] بل بالمستشفيات أو بعلم حفظ الصحة ؟

فاذا انتصرت الحتمية الاجتماعية ، وهو مايحق لنا أن نرجوه ، فإن المجتمعات ستظل تنكر الجريمة والكذب والسرقة ، وستمضى فى مكافحة تلك الرزايا . ولكنها لن توقع « العقاب » على الجانى ، بل ستداويه بعد أن تكون قد حالت بينه وبين الإضرار بالناس . ولن تشدد النكير على الجريمة ، بل ستهتم بتبين عللها ووجوه القضاء عليها. فماهوالدواء الناجع ؟ أهو ذم المدمن على الخمور ، أم إلغاء تعاطى الخمور بواسطة القانون ؟ أهو

---

(١) « اسقولاب » Esculape إله الطب عند اليونان .

التشنيع على التاجر الدنىء؟ أم اجتثاث جرثومة التجارة الدنيئة ؟ أهو سب البغايا ؟ أم القضاء على البؤس الذى يغذى البغاء ؟

يعترضون أيضا بأن التسليم بفرض « الحتمية » قضاء على الأخلاق نفسها ، ومساس بالكرامة الإنسانية . وكأن احتمال أن يصبح الشخص مدمنا للخمور أو سارقا أو بغيا هو جزء من كرامتنا ! ولكن مع أن من الميسور دائما أن تُرمى الأفكار الجديدة بمخالفة الأخلاق، فإن أخلاق التساهل القائمة على « الحتميــة » لها أسلاف نابهون يجب إسكاتهم قبل التعرض لنا : فهل كان أفلاطون مقوضا للأخلاق حين قال : « لا أحد يقترف الإثم عامدا متعمدا » ؟ وهل كان « سِنِكا » هادما للأخلاق حين قرر أنه ينبغى علينا أن لا نمقت الشرير بل أن نرثى لحاله ؟ وهل كان الإنجيل مقوضا للأخلاق حين أورد على لسان عيسى : « أبى اغفرلهم ، لأنهم لا يعلمون ما يصنعون » ! وأخيرا هل نقضى نحن على الأخلاق إذا اعتقدنا أن قانون المحبة شامل ، وأنه ليس لأحد الحق فى أن يستثنى منه أحداً ؟

ولا يقف المبدأ الحتمى عند الرفق بالمجرمين والتوفيق بين المقت الشديد للإثم والعطف الفعّال على مقترف الإثم . فإلى جانب أولئك الذين يسرقون و يقتلون والذين يظلون لحسن الحظ من الشواذ فلا يقاس عليهم،

هناك كل من يخدمون قضية الجور تحت ظل القانون : أولئك هم الأنصار المتأخرون لروح الحرب أو لروح الطبقات وخصوم الحرية والمتهنون لحقوق الفكر .

وإذا كان من الواجب أن نناضلهم فإن أخلاق العلم تصرح بذلك وتدعونا إليه . ولكن النضال هنا أيضا يشوبه غير قليل من الحقد والضغينة : فكثيرا ما يرخى الناس العنان لأهوائهم، و بدلا من أن يقصروا بغضهم على المذهب السيء تراهم يمقتون من يخدمونه فيجعلونهم موضعا للازدراء والكراهية و يعاملونهم معاملة الأعداء . وأغلب الظن أن هذه المعاملة ليست أضمن الوسائل للعمل على انتصار الخير . ومن المحقق أنها ليست أجمل الوسائل لذلك . أما الروح الاجتماعية فينبغى أن تذكرنا أنه إذا كان لم يزل هناك أناس يؤمنون بقداسة الحرب أو الامتيازات ، فإن وجود هؤلاء الناس هو نفسه واقعة ولها عللها . فاذا أخطأوا فذلك لأن عبء الماضى قد أناخ بكلكله عليهم . وسواء أكانوا أثرياء أم أقوياء أم قليلى الأدب ، فإن الذين يرون بؤسهم لا يستطيعون أن يشعروا نحوهم إلا شعورا واحدا وهو الشفقة ، فلا يدور بخاطرهم أن يصرعوهم بل يريدون أن يصلحوهم .

من منا هو المعصوم حتى يصح له أن يترفع على المخطئين ؟ إذا كان من حسن حظنا ، بفضل ما نلنا من تربية ، أو ما حصلنا من دراسة ، أن نكون فى عداد من يرون بوضوح بعض المظالم الكبرى التى تشين مجتمعاتنا، فمن أوضح الأمور أننا مع الأسف لا نرى جميع المظالم : فكما أن حكماء كثيرين قد عاشوا دون أن يروا فظائع التعصب فنحن نعيش من غير شك بين مظالم كبيرة لا نراها بل قد لا نلمحها ، وقد نكون عمالها أو شركاء فى اقترافها عن غير قصد ولا شعور . وقد يأتى يوم يقف فيه المؤرخون من أهل عالم أكثر حكمة من عالمنا موقف الدهشة لتلك الغشاوة على بصائرنا . ثم إنهم يكونون قد نشأوا نشأة علمية ، فيفهمون أن خطأنا إنما ورثناه من ماضٍ فُرض علينا كما يفرض علينا الأمر الواقع ، فيحكمون حكما شديدا على أخطائنا و يتسامحون فى الحكم على أشخاصنا .

وهذا العطف الذى سنكون بحاجة إليه يوما ما إنما تطالبنا روح علم الاجتماع بأن نمنحه جميع الناس . فهل يكون النصر لهذه الروح مع علم الاجتماع نفسه ؟ إن على الوقائع أن تجيب . إننى أعيد القول بأننى أعرف أن الناس لا يولون العلم الناشىء ، علم الوقائع الاجتماعية ، الثقة التى يمنحونها على الطبيعة أو علم البيولوجيا . ومن أجل ذلك رأيت أن

لاأعرض فى الفصول التالية لمبدأ التسامح المتضمن فى البحث الاجتماعى ـ وقد كان من حتى على أقل تقدير أن أبيّن أنه إذا قدّر له أن ينتصر كما أؤمل فسيعيننا على أن نوفق بالعقل بين شعورين عظيمين يقودان العالم : وهما كراهية الشر ومحبة الناس .

الفصل التاسع

شرط النجاح

تمجيد الفكر ، والتماس الوحدة ، واحترام الحرية ، هى المبادئ الثلاثة الكبرى المتضمنة فى البحث العلمى ، وهى المثل الأعلى الذى صدر عنه العلم ، وأصبح له ناموسا يخضع له ويحيا عليه .

نعيد القول إنه مثل أعلى لم نبتدعه نحن وإنما هو المبتدع ، وإننا لا نقدمه كقوة جديدة صالحة فقط للعمل المستقبل ، ولكنه مستفاد من عمل قد تمّ من قبل ؛ ثم هو مثل أعلى لم يترجم فى الأقوال إلا بعد أن تُرجم فى الأفعال .

وقد يقول لنا البعض : وماذا بعد هذا ؟ إن كون العلم يتضمن بالفعل هذه المبادئ الثلاثة ليس يلزم عنه أن له الحق فى أن يسعى إلى فرضها على الناس دون أن يخرج عن حدود وظيفته .

ونحن موافقون . وليس من قصدنا أن نعودَ بعد الدوران إلى ما قلنا فى بداية الأمر . فمن الحق أن العلم ليس تشريعيا ولا يمكن أن يكون

تشريعيا ، وأنه يخرج عن مهمته إذا أراد أن يقوم بدعوة الناس إلى المبادئ التى خرج من صلبها . غير أن من الحق أيضا أن تلك المبادئ قد التحمت بالعلم التحاما يجعل فى ذيوعه إذاعة لها . ولما كنا نراه يزيد كل يوم ذيوعا فمن حقنا أن نلاحظ أن أخلاقاً « جديدة » قد أخذت تنطبع فى الوقائع وفى النفوس . وهذا كل ماقد أردت أن أبينه .

صحيح أن أخلاق العلم هذه مازالت فى بداية أمرها ، وأنها تصطدم بقوى عتيقة تنكرها تارة وتحرقها تارة أخرى .

وهذا منشأ مانراه من أمر عجيب : ففى حين أن العلم شىء عظيم جليل بلا نزاع ، نجد أن تدقيقات العلم مازالت قلقة كل القلق ، وهى أحيانا بائسة غاية البؤس ، آثمة أشنع الإثم .

ولكن لنتخيل ما سيأتى به المستقبل يوم نرى تلك الأخلاق قد حملها تقدم الروح العلمى ، فانبسط سلطانها ، ولنتخيل أن العلم قد استخدم بالروح التى وهبته الحياة ، فإننا لن نرى مكتشفات الفكر تصبح على أيدى الناس أدوات للهلاك وآلات للطغيان والبؤس المادى والأخلاقى.

بما أن أخلاق العلم تمجيد للفكر ، فإن أصحاب التطبيقات العلمية (techniciens) لن يستخدموا الوقائع المقررة ولا القوانين المحصة إلا للعمل على ذلك التمجيد . وسيتوخون مهمة تحرير الإنسانية من العبوديات الاقتصادية ، لا لزيادة اللذائذ المادية زيادة لا حد لها ، بل لكى

يتيسر لكل واحد وللمجموع أن يدخر للمتع العقليـة أكبر قسط من الحياة . ولن يضعوا الذهن لحظة واحدة فى خدمة الآلة إلا لكى يضعوا الآلة فى خدمة الذهن ، وسيخلصون الإنسانية من هذا الخضوع للعـامل الاقتصادى الذى ينوء بعبئه أغلب الناس . فاذا تم لهم أن يخلصوهم من الرق فلن يبحثوا إلا عن الوسائل العلمية (techniques) لجعل المعارف المكتسبة فى متناول الجميع ، ولكى يتيسر لكل واحد أن يكون أكثر فأكثر وأحسن فأحسن كائنا مفكرا .

وبما أن أخـلاق العلم طلب للاتحاد فإن أصحاب التطبيقات العـلمية لن يقبلوا أن توجه نتائج البحث البرىء ناحية الحقد والموت . وسيأبون أن يكونوا عمالاً فى خدمة الحرب ، ولن يطيب لهم أن يروا أن ما اكتشفوا لتحقيق الوئام قد استخدم للقتل ، بل سيبذلون لإذاعة الحقائق المكتشفة ما وسعهم من جهود ، حتى ينشأ ، من الوفاق بين الأذهان فى عالم عاقل ، وئام بين الإرادات والقلوب .

وأخيرا لما كانت أخلاق العلم احتراما للحرية ، فإن أصحاب التطبيقات العلمية لن يضعوا أنفسهم أبداً فى خدمة الاستبـداد فى أية صورة ظهر ، سواء كان استبداد القوة أو المال أو استبداد المذهب الذى يريد الافتئات على حقوق العقل . وسيكون قانونهم فى جميع التطبيقات التى تستطيع

اختراعاتهم أن تخدمها ، أن يحترموا اســـتقلال الفكر وأن يناصروه ، موقنين أن القوة لا يحل لها بوجه من الوجوه أن تصاول الفكر .

أقول : لنتخيل هذا . والواقع أننا اليوم مضطرون إلى أن نتخيله ، ما دمنا نعيش فى عالم نرى فيه الشراهة والـكراهية والعدوان تستخدم العـلم مع التنـكر له ، وتطلب إليه كل يوم أدوات للحقد والقهر ؛ ولـكن خاصة كل مثل أعلى أن يتقدم للمستقبل . وإنما أردت أن أبين أن النتيجة الضرورية لأخلاق العلم هى رفع النشاط الإنسانى إلى منزلة عالية. وستتحقق النتيجة إذا انتصرت تلك الأخلاق . وهذه الأخلاق نفسها ستنتصر إذا دأب العلم والروح العلمى على توسيع مجالها وتوطيد دعائمها .

فهل لنا أن نأمل فى هذا التوسع ؟ إن ما شرفت به القرون الثلاثة الأخيرة من تقـــدم لم يسبق له مثيل يأذن لنا بآمال كبار ؛ ولـكنى سأتجنب كل نبوءة متفائلة : فالإغراق فى التفاؤل قد يغـرى الإنسان بالـكسل . ولئن يكن صحيحا أن تقدم المعرفة العلمية لا يُدفع ولا يُغلب على مرور الأيام ، فما يؤسف له أنه غير مطرد ولا مستمر . وهذا أمر محقق لا نزاع فيــه : فقــد رأينا التقـدم العـلمى يقف عن الحركة أواخر الامبراطورية الرومانية وفى العصور الوسطى . ونلاحظ أننا حتى فى أيامنا هذه نرى الغلبة لنوع من المادية قد لا تكون أقل شؤما على انتصارات

الفكر . فلنكن إذن على شيء من الحيطة ، فلا نثق كل الثقة فيما يذهب إليه بعض الناس من أن العلم ستكون له الغلبة حتما وفي كل زمان بفضيلته الخاصة: فهو لايستطيع أن يعيش ككل المبتدعات الإنسانية إلا بجهود من سيخدمونه . فعلينا إذن أن نسعى لنجنّب الإنسانية عهودَ الوقوف أو التقهقر ، ولنجعل الانتصار للروح العلمي ولأخلاق العلم والمثل الأعلى الذي تحمله في نفسها .

ولكننا نلتقي هنا بالاعتراض الأخير : هل هذا المثل الأعلى على نحو ما عرفناه يبلغ من العلو والنبل والكمال درجة يستولي بها على الإنسان كله ويرفعه ويرضي حاجات الشعر في نفسه حتى يُثير في قلبه الحماسة ؟ وهل يقدم إلى الوجدانات الفردية ذلك الشعور العميق بالجمال الذي يمنح وحده التوثب والفرح ؟

إني أعرف أن كثيرين ينكرونه ، وأعرف أنه حتى بين الذين يقبلون أخلاق العلم سيكون هناك أكثر من واحد يرون أن هذه الحكمة لم تبلغ بعد إلا نصف حكمة ، وأن حياة النفس في عمقها تتطلب غذاء آخر . ولكني أحسب أن الأمر لا يعدو أن يكون وهما راجعا إلى سلطان الآراء القديمة : فإننا إذا توخينا أن ننفذ إلى روح العلم ألفيناه يقدم إلينا أنضر البهجات ، ويقدم نظرةً إلى الحياة أقدر من غيرها على إثارة حماستنا ونشاطنا .

الفصل العاشر

بهجة المعرفة - بهجة الاتحاد - بهجة الانطلاق

صحيح أن المثل الأعلى الذى عرّفناه شديد على النفوس من بعض الوجوه : فإن الحقيقة لا تنكشف للعالم إلا ببذل جهد شاق ، والعلم لا ينكشف لغير العلماء إلا بعد البحث الطويل . ولكن أى المباهج يمكن أن توازن بتلك التى يأتينا بها هذا الجهد وذلك البحث ؟ قد وصف لنا « لوكريتيوس »[1] نشوة الجهد فى شعر له مشهور ، ووصفها عالم من علماء عصرنا وصفا فيه حرارة وتأثر . وصف « ترميبه » Termier بهجة أولئك الباحثين ذوى النفوس المشرقة المبتهجة وإن لم يفهمهم الناس،

---

(١) « لوكريتيوس » Lucrèce شاعر لاتينى كبير ، ولد سنة ٩٥ ق م ؛ استوحى قصيدته « فى الطبيعة » من المذهب الجبرى الذى دعا إليه الفيلسوف اليونانى « إبيقور » ؛ ولكن تحمس الشاعر لجلال القوى الطبيعية ، وكراهيته للخرافات ، ومحبته للإنسانية، وسعيه إلى أن يدفع عنها الخوف، ليعيد إليها الراحة والطمأنينة ، كل هذا قد جعل من قصيدة الشاعر درة من درر الأدب اللاتينى — المعرب .

« بهجة جاليلى[١] حين رأى تحت قدميه حركة الأرض ، وبهجة كِبْلَر[٢] وهو يرهف السمع ، فى سكون الليالى الجميلة ، إلى الصوت البعيد ، صوت دوران الأفلاك ، ذلك الدوران الذى صاغ قوانينه الدقيقة ، وبهجة نيوتن حين رأى ثبوت شمول الجاذبية فى كل ماحوله من العالم ، ورأى علم الفلك كله يصبح مشكلة بسيطة من مشكلات الميكانيكا» .

ما منشأ هذه البهجة ؟

تنشأ من شعور المرء بأنه حين يستكشف الحق يؤدى رسالة هى أرفع ما استعد لأدائه إنسان : يقول حيث لم يكن يوجد إلا حيرة وظلام : « فليكن النور ! » ويطلع النور على الناس . فهذه الرغبة فى الفتح المطوية فينا ، والتى دفعت كثيرا من الأفراد والشعوب إلى كثير من أعمال العنف والجور ، تجد فى العلم وسيلة تشبعها وترفعها : ذلك أن الفكر حين

---

(١) «جاليلى» Galilée (١٥٦٤ — ١٦٤٢) فلكى رياضى طبيعى وفيلسوف إيطالى ؛ مكتشف عدة قوانين علمية كقانون الرقاص وقانون سقوط الأجسام . . . وهو صاحب فلسفة المادة ذات طابع ميكانيكى ، وأحد السابقين إلى إقامة المنهج الحديث للعلوم الفيزيقية والكيميائية — المعرب .

(٢) « كپلر » Kepler (١٥٧١ — ١٦٣٠) فلكى ألمانى كبير ؛ صديق « تيكو — براهى » ؛ جهد لإصلاح مذهب « كپرنك » فى علم الفلك ، وسعى إلى التمكين له بين العلماء ؛ وكثيرا ما مزج « كپلر » نظراته العلمية بلمع صوفية — المعرب .

يقيم النظام فى العالم يسيطر عليه ، ويتناول الواقع الذى كان يبدو باتساع مداه واختلاف ألوانه شيئا يستعصى على التحليل ، فيطبعه بطابعه ويبسط عليه سلطانه ، وتأتى الوقائع راضخة فتنضوى تحت لواء الافتراض الذى كان يبدو هزيلا ، فأصبح له الحكم والسلطان .

تلك بهجة بلغ من صفائها وامتلائها أن جعلها بعض المفكرين ميزة انفردت بها الآلهة . وقد كانت خاصة العظمة عند الوجود الإلهى فى ذهن اللاهوتيين والفلاسفة هى أنه مستمتع بسعادة المعرفة فى كمالها لا يعوزه منها شىء . ولكن الذى يضفى على بهجة العالم سحرا أكبر مما للبهجة التى تنسبها الميتافيزيقا إلى الآلهة أنفسهم ، هو أن سعادة المعرفة يصحبها سعادة البحث ، أعنى ذلك الشعور بالإبداع الذى يصحب سيطرة الفكر على المادة .

يقف الباحث بإزاء الواقعة التى تتهرب ، والعلاقة التى تتحجب ، فينبثق الافتراض فى ذهنه . ويكون أول الأمر افتراضا مزعزعا ثم يتضخم ويقتحم الواقع : وتؤيده تجربة وتعارضه أخرى ، ويسنده نص ويصدمه آخر . ويحدث أحيانا أن ما كان من الصيغ رائقا يبدو بعد ذلك قفرا خداعا : فنرجع على أعقابنا ، ونقدم على سلوك طريق جديد . وقد يحدث أيضا أن يتذرّع الذهن بالعناد ويجسر على معارضة الظاهر ، ويعيد التجربة التى خيبت الآمال ؛ وإذا الوقائع وقد استضاءت فجرت على أحسن ترتيب .

فما عسى أن يكون الزهو الهزيل ، الذى يخالج القائد الحربى الذى تصفق له الجماهير الساذجة ، بالقياس إلى هذا الانتصار الذى يكون للفكر على الكون ؟ وما قيمة بهجة الفاتح حين يستولى على مدينة أو على قطر، إلى جانب البهجة التى تكون لعلماء الفلك الذين استطاعوا بقوة الذهن وحدها، أن يغلبوا اللامتناهى فى العظم ، و إلى جانب بهجة علماء الطبيعة أولئك الذين ساروا بالتجربة وبالحساب فى الطريق إلى التغلب على المتناهى فى الصغر ؟

كلا . ينبغى ألا نرثى لحال الباحثين الذين يترددون و يتحسسون ويواصلون البحث ؛ فهم كما يقول « ترمييه » أيضا : « حسبهم حتى إذا لم يجدوا ما كانوا يطلبون أنهم قد طمعوا فى النشوة العظمى ، وأنهم قد عاشوا فى الحماسة والأمل وفى الحلم ، و إنه لحلم برىء براءة ليس لها حد : فهم عاشقون مخلدون » ؛ ومهما يكن فى جهدهم من مشقة ، فإنه يحمل فى نفسه جزاءه الحسن ؛ وما من شىء يستولى على النفس كلها كالطلب الشديد للحق .

قد يقال إن هذه البهجات ميزة انفرد بها العلماء أنفسهم . وهذا حق: فكما أن القس يتصل بالأمور المقدسة على وجه أكمل ، كذلك يستمتع الباحث أقصى استمتاع بسعادة الفتح : إنه اختار النصيب الأوفى . وقد يكون من الخير أن نقول هذا فى أيامنا هذه إذ نرى كثيرين جدا من

الشبان تغريهم نفعية عامية ، فيتأثرون بها فى اختيار طريق حياتهم .
ولكن البحث يدخر لجميع من يقبلون عليه مُتعاً من هذا القبيل .
وليس انفعال من يستمع إلى سمفونية موسيقية كانفعال الموسيقار الذى
ألفها ، ولكن يمكن أن يقارب به : وكذلك كل من يرغب فى المعرفة ،
وكل من يدخل حظيرة العلم ينال نصيباً من مباهج العالم . فهو كالعالم فخور
بالفهم ، وهو كالعالم يشعر بهزة فى النفس ، إذ يرى الصورة المعقولة للعالم
تخلص شيئا فشيئاً من الظلام .

إن ما يصح أن نوجهه اليوم إلى تعليم العلوم من مآخذ ، هو أنه
كثيراً ما يعرض فى أسلوب جاف جداً النتائج التى تم غزوها ، ولا يدلى
بالبيان الكافى عن الفتح نفسه ، وعن تردده وتعثره ، وعن كل ما ينطوى
عليه سيره من أنباء درامية مثيرة . وقد يكون من الأناقة أن نُغفل ذكر
الكفاح ، وأن نقتصر على إظهار الانتصار . ولكنا لو أطلعنا غير العارفين
على هموم البحث ومباهجه لزاد تقديرهم للجمال الحى جمال العلم . وقد
يجىء يوم تكون فيه الإنسانية المتنبهة شديدة التحمس للمعارك الكبرى
التى يشنها الفكر على المجهول ، كما أنها اليوم ما فتئت تتحمس للمعارك
الحسيسة التى يشنها الإنسان على الإنسان .

***

وليست بهجتنا بشعورنا بأننا نشارك من يفكرون بأقل من بهجتنا بالمعرفة . مهما تكن قوة الأنانية الإنسانية فإن الرغبة فى الاتحاد قد بلغت من الرسوخ فى نفوسنا أن سيطرت على تاريخنا كله . وسواء لاحظنا الناس فى القبيلة أو فى الأسرة أو فى المدينة أو فى الوطن أو فى الكنيسة أو فى الرابطة المهنية ، نجدهم دائما يطلبون أوضح معانى السعادة إلى الشعور الذى يقربهم إلى الغير : ويكون المرء سعيدا حين لا يجد نفسه وحيدا ؛ ويكون الإنسان سعيدا إذ يحس نفسه متعاونا تعاونا تاما عميقا مع أمثاله من الناس ؛ ويكون سعيداً حين يشاركهم فى أداء مهمة أو فى انفعال فنى أو فى الإيمان بمثل أعلى ؛ ويجد المرء فى تفانيه فى المبتدعات الاجتماعية الكبيرة ، ويجد حتى فى التضحيات التى يمكن أن يبذلها للغير شعورَ سعة وإثراء ، ويجد بهجة حياة أعمق .

ومن أجل ذلك كان أحكم الناس هم أولئك الذين أحسوا أكثر من غيرهم ببؤس الأنانية ولذة الوفاق ، وأولئك الذين قالوا جهرة وفى قوة « ليحب بعضكم بعضا ! » . غير أن أكبر عيوبنا أن يبقى ذلك القانون حرفاً ميتا ، وأن يصبح الحب وكأنه محصور فى زمرات جزئية إذا تعداها انقلب قلة مبالاة وازدراءً أو كراهية : تكون الأسرة متحدة ، ولكنها تنهض لمعاداة أسرات أخرى ؛ وتكون المدينة متحدة ولكنها تصاول مدنا أخرى ؛ ويجمع الوطن شمل أبنائه ، ولكنه يدفع بهم إلى مناهضة

أوطان أخرى ؛ و يحث الدين أنصاره على المحبة ، ولكنه يحثهم أيضا على كراهية الأديان المجاورة أو ازدرائها .

وحتى حين يوجد من الناس من يستطيعون أن يتحرروا من جميع هذه الأفكار التى تقضى على نزوع الإنسان إلى الإنسان ، وحتى حين لا يطمحون إلا إلى محبة الإنسانية بأسرها ، يتساءلون ما عسى أن يصنعوا لكى تكون مثل تلك المحبة شيئا آخر غير صيغة لفظية مفرقعة خاوية . قال لى أحد أساتذتى فى مدرسة المعلمين ، وهو واحد من أكرم من عرفتهم من الناس ، وهو الأستاذ « روه » Rauh [(١)] ، قال لى يوما : « تلك الشعوب وأولئك الناس الذين يعيشون فى الطرف الآخر من العالم ، والذين لا أعرفهم إلا بالكتب ، ماذا ينبغى أن أفعل لأحبهم حبا لا يكون لفظيا؟ وهل من سبيل إلى تصور مشاركة بينهم وبينى ، و بينهم و بيننا ؟ » .

هذه المشاركة الروحية ينشئها العلم ، كما رأينا ، و ينشئها دون جهد ومن أول مرة . يستطيع العالم أن يقول للحقيقة التى أقامها راسخة الأركان ، سواء كانت هينة أو جليلة : « اذهبى ! » . والواقع أنها تجتاز الفضاء ، وتمضى محلقة فوق جميع الاضطرابات الناشئة عن تصادم المصالح والأهواء ، حتى تجد هنالك فى الطرف الآخر من الكوكب فكرا آخر يحسن لقاءها و يفهمها و يجعلها له مذهبا : وعلى هذا النحو يقوم الاتحاد الذى كان يبدو أول الأمر مستحيلا ، وعلى هذا النحو يستطيع العالم أن

---

(١) « روه » (١٨٦١ — ١٩٠٩) فيلسوف أخلاقى فرنسى ؛ كان لتعليمه وكتبه أثر عميق ؛ سعى إلى بناء مذهب قائم على التجربة الأخلاقية — المعرب .

يتذوق بهجة الشعور بأنه كان من صناعها : فهو رجل الإنسانية فى مهمته المهنية التى يؤديها كل يوم .

ولا يذهبنّ أحد إلى الاعتراض بأن عدد من يعرفون الحقائق العلمية، حتى فى جملتها ، لم يزل قليلا . إن من الحق المؤسف أن نجد حتى فى بلادنا الغربية أن عددهم قليل ، وأننا نترك شطراً كبيرا من النوع الإنسانى فى جهل تام بما هو فى نظرنا جوهر العظمة عند الإنسان الحديث . إن مهمة الشعوب الممتازة أن تنشر كنوز الحقائق المكتسبة فى أرجاء العالم . ولكن العالم إنما يقوم بمهمته حين يقيم قانونا أو علاقة على نهج يقبله الناس جميعا . والجهد نفسه الذى يتكلفه لكى يكون لبرهنته قيمة كلية يقتضى رغبة فى الاتحاد العام ؛ إن مباهج أعظم مشاركة روحية إنسانية هى حظ من يبحث .

أينبغى أن نتحدث أخيرا عن مباهج الحرية ؟ لقد رأينا أن العلم لا ينمو إلا فيها وبها . أهناك حاجة إلى أن نبسط القول فى إثبات أن النمو فى الحرية هو نمو أيضا فى البهجة ؟ أعرف أنه قد وجد من الناس من امتدحوا حلاوة الإذعان والاستسلام . ولا أريد أن أناقش من يجدون السعادة فى خذلان الذهن ، وأحب أن أدعهم فى سعادتهم المزيلة . ولكن السعادة القوية إنما هى تلك السعادة المصنوعة من نمو قوتنا الجوهرية نموا حرا ، وإن الداء الوحيد الذى لا دواء له هو الذى يوقف وثبة الذهن .

فالشخص الذى يقف على عتبة مشكلة من المشكلات ويقول للفكر :
« لن تدخل ! » يلبسنا مذلة هى أشنع الآلام .

ورد فى كلام ديكارت عبارة تبدو لى دائما مثيرة للفجيعة . فديكارت عندنا هو الصائغ العظيم لحركة التحرير التى هى روح المذهب الإنسانى ؛ هو الرجل الذى أعرض عن كل سلطة ، وهو الذى يأبى أن يقبل شيئا قط على أنه حق ما لم يعرف بداهة أنه كذلك . ولكن يا للأسف ! فى ابريل سنة ١٦٣٤ نجد ديكارت هذا نفسه إذ يتحدث عن بعض النتائج التى استخلصها من اكتشاف « جاليلى » يعدل عن هذه الحرية التى يعرف قدرها ويحسه ، ويكتب إلى الأب مِرْسن : « ولئن كنت أعتقد أنها مستندة على براهين يقينية جدا وبديهية جدا ، فإنى لا أحب أبدا مع ذلك أن أجاهر بها معارضا سلطة الكنيسة » . وليت شعرى أهناك ألم للإنسان أشد قسوة من هذا الذى تتضمنه هذه العبارة حيث نجد التمرد يوجس خيفة حتى من التعبير عن نفسه ؟ إن الرضوخ أمام برهان ما ، ليس رضوخا وإنما هو تقدم إلى الأمام . ولكن اعتقاد المرء بأن برهانا ما هو « يقينى جدا وبديهى جدا » ثم عدوله عن الجهر به لأن سلطة ما تعارضه ، فى ذلك ألم لا يطيقه المرء ولاسيما إذا كان من يحسه يتبين مبلغ ما يتعرض له من مذلة وإهدار للكرامة الإنسانية فيه . وإذا كان العلم يزيل جميع ما يوجد أمام الفكر من عقبات ، وإذا كان يجعل من الحرية قانون نموه

وتقدمه ، فهو قد خلصنا من أسوأ الآلام ، وجلب لنا أرفع بهجة : لأنه لا شيء يستطيع أن يثير حماسة الذهن مثل شعوره بأن أمامه فضاء لا محدودا ، وأنه لا شيء يستطيع أن يحطم وثبة الفكر .

***

لم أنظر في المسألة حتى الآن إلا من وجهة نظر العالم . ولكن العلم إنما يجلب للإنسانية مع الحرية ذلك الشعور بالثقة الذي هو ثمرة له . لقد أوضح « لانجفان » هذا الأمر : وأظن أنه كان في بيانه مصيباً غاية الصواب .

ولنذهب مع « دوركايم » حتى نصل إلى الصور البدائية للحياة الدينية . العالم كالمغمور في تلك القوة اللاشخصية الهائلة التي لا اسم لها وهي «المانا» (le Mana) . هي قوة يُخشى بطشها ، لأن من يتصل بها دون أن يتخذ الاحتياطات اللائمة يصاب بصدمة تعقب المرض أو الموت. وحينئذ يلتمس الإنسانُ السبيلَ إلى الحصول على شيء من « المانا » لكي يجسر على العمل ، ولكي يطمئن قلبه . ولكنه يعيش في خوف دائم من أن يلتقي التقاء شاذا ، وبالتالي مشئوما ، مع هذه القوة التي تتجاوزه تجاوزا بعيدا ، وإن كانت نافذة فيه . ويبذل الدين جهده للتخفيف من هذا الخوف ، ولكنه بهذا الجهد نفسه يبسط سلطان الخوف ، ويجعل له مسوغا ..

أما فى الصور الدينية التى هى أحدث عهدا فقد حلت الآلهة الشخصية محل « المانا » اللاشخصية . وكان هـذا أول محاولة من محاولات التحليل و بالتالى التفسير يجب أن لا نغفل ما لهـا من خطر : لأن ميزة العلم أنه يستطيع أن يحكم بالقسطاس المستقيم على جميع الجهود الإنسانية الكبيرة. ولـكن إذا كان فى هذا النحو من التشبيه[١] (الذى لم يتخلص منه العلم نفسه والذى يتكلف أحيانا عناءً كثيرا للتخلص منـه) إذا كان فيه خير مؤقت ، فهو أبعد الأشياء عن أن يعطى للناس راحة البال والأمان: لأن الآلهة إذا كانوا أحيانا رحماء بالنـاس فهم أحيانا أخرى جبارون ، سرعان ما يستشاط غضبهم . ولما كانوا هم حفظة « المانا » فهى ذات بأس شديد . ولابد للمرء لكى « يهدئ » هذه القوى من أن يقدم لها ضحايا بشرية . ثم إنهم إذا كانوا يدخرون أحيانا لمن اصطفوهم ثوابا ونعيما باهرا فهم يتوعدون غيرهم ، وهم الجم الغفير ، بجميع صنوف العذاب والتنكيل المريع . فالدين ، فى هذه المرة أيضا ، يعمل ما يستطيع ليعطينا الوسائل التى نتحرر بها من هذا الخوف ؛ ولـكنه فى هذه المرة أيضا يبدأ بتمكين أساس الخوف : أراد التأمين فعمد إلى التخويف . وهنـا جاء الروح

---

(١) « التشبيه » Anthropomorphisme هو تصور الله على غرار الإنسان: كأن يقال إنه يرى ويسمع ويغضب ويرضى ، أوأن له يدين ورجلين . و « التشبيه » ضد « التنزيه » الذى هو تصور الله متعاليا عن صفات العباد ــ المعرب .

العلمى ، فنهض بمهمة التحرير النهائى . لقد هتف « لوكريتيوس »:
Primum Graius homo!..[1] وقال :

« على مرأى من الجميع رقدت الحياة الإنسانية على الأرض رقدة العار ، وقد أبهظتها وطأة دين تبدى من أجواز السماء برأس مخيف ، ينذر بوعيد معلق على رءوس البشر الفانين . حينذاك قام الرجل اليونانى ــ وهو أحد الفانين ــ فكان أول من تجرأ على أن يرفع عينيه متحديا » .

أعيد القول بأن فى هذه الأبيات افتئاتا وتجنيا ، فقد سعى الدين إلى تحريرنا قبل سعى العلم . وليس كل ما فى الدين وعيدا . غير أن من الحق أن يقال إن الدين قد أقام أركان الخوف الذى حاول أن يخلصنا منه ، وحتم على الناس إقامة الشعائر الدامية ، وأنذرهم بالعقاب المروع ، فاستحق أن يوسم بهذا البيت الشعرى القاسى :

Tantum religio potuit suadere malorum!..[2]

ما الواجب لعمل ما لم يستطع هو أن يعمل ، أى للقضاء على الخوف؟ ينبغى حين نسعى إلى تفسير العالم أن نستعيض عما ينسب إلى الموجودات الإلهية من إرادة متقلبة مخيفة بما للقوانين الطبيعية من فعل مطرد . يقول «لوكريتيوس» : Naturae species ratioque[3] . وهو يعبر فى هذه الكلمات الثلاث عن روح العلم : ذلك أنه متى تم للإنسان أن لا يرى فى

(١) «الرجل اليونانى أولا !..» ــ المعرب .
(٢) «كم من بلاء استطاع الدين أن يجر على الناس ...» ! ــ المعرب .
(٣) «ظواهر الطبيعة والعقل» ــ المعرب .

الظاهرات آثار إرادة شبيهة بإرادتنا تكون تارة رحيمة وتارة قاسية ، ومتى تم له أن لايرى فيها إلا آثار نظام طبيعى ، أى باطن فى الأشياء وفى متناول الأذهان ، فقد اطمأن قلبه وذهب ما كان يساوره من خوف قديم ، واستطاع أن يحتل ما يسميه الشاعر « بالروابى المحصنة بالعلم ومعابد الهدوء والصفاء » .

توهم « لوكريتيوس » أن فلسفة « إبيقور » وحدها خليقة أن تتم على الناس نعمة هذا التحرير . رأى فى الفيزيقا الإبيقورية العلاج لجميع هذه المخاوف ، وأخذه الزهو بهذا الانتصار الذى ظنه حاسما ، فحيى فى أستاذه فاتح الكون وقال : « نعم انتصرت به قوة الذهن الحية . قطع أشوطا بعيدة وتجاوز بوثبة الفكر أسوار العالم المشتعلة ! » . نعلم اليوم أن صيحة النصر هذه كانت سابقة لأوانها ، ونعلم أن الجهد العلمى الذى بذله اليونان كان لابد أن يمسكه انتصار أديان النجاة الكبرى ، وهى أرفع من سابقاتها قطعا ، ولكنها مثلها عاجزة عن دفع الخوف القديم . ونعلم أن الفيزيقا التى كان يُظن أن واحدا يستطيع أن يقيم بناءها لم يكن بد من أن تكون عملا اجتماعيا يساهم فيه آلاف الباحثين . ولكن ما نعلمه أيضا هو أنه كلما تقدم ذلك العمل استمر التحرر الذى أراده « لوكريتيوس » وتابع سيره فى صمت ، دون أن يستطيع أحد مقاومته . وكل جهل يزول عبارة عن أمان يقوم . فلا الصواعق ولا اهتزازات الأرض ولا فيضان الأنهار ولا الأوبئة ولا شىء من ذلك يبدو لنا الآن

عقابا يصب على الناس الواجفين ، وإنما نرى هذه الأمور آثاراً لقوانين استطاع الذهن أن يدركها . وكوننا نفهم هذه القوانين معناه أننا قد تغلبنا عليها قليلا ، ومعناه أننا وضعنا فوق منغصات الأشياء طمأنينة النفس وراحة البال . وعلى هذا النحو يسوقنا العلم شيئا فشيئا إلى حال التحرر العقلي ، ويبث فينا ذلك الشعور بالأمان الذي كانت الحكمة اليونانية ترى فيه الخير الأسمى ، والذي تعقبه الناس بجهودهم القلقة مدى قرون كثيرة .

ولكن من الذي قال إذن إن المثل الأعلى المتضمن في العلم مثل أعلى متجهم بارد يضيء ولكن لا دفء فيه ؟ هؤلاء العلماء الذين يعكفون في معاملهم باحثين عما يمكنهم من اغتصاب أسرار الطبيعة ، وهؤلاء المؤرخون وهؤلاء الاجتماعيون الذين ينقطعون لدراسة النصوص محاولين أن يختلسوا منها أسرار الماضي الإنساني هم من العمال السعداء الذين يساهمون في عمل « ديني » هو أبلغ ما حاول إنسان . إنهم يساهمون في أعمق المباهج، وهي بهجة المعرفة ، ويوقفون غيرهم عليها ؛ يساهمون ويوقفون غيرهم على أرفع صور الاتحاد وهو الاتحاد بالروح ؛ يساهمون ويوقفون غيرهم على أكمل ضروب التحرير وهو التحرير بالذهن . وعملهم كله ، في وقاره الضروري ، عمل بهجة ومحبة وسلام . فهل يلزم للإنسان حقا شيء آخر لكي يسمو به ويحمله على جلائل الأعمال ؟ ألا يكفي لمجده أن يكون صانع يوم من صناع هذا العمل الخالد ؟ وألا يكفي لسعادته أن يتصل اتصالا

روحيا بمن يفكرون ؛ وأن يعمل لكى يأتى يوم يصبح فيه الأحياء جميعا من المفكرين ؟ .

إن موضوع دراساتى نفسه يجعلنى أعيش على اتصال دائب بالصور المتغيرة التى تشكل بها المثل الأعلى الإنسانى على مدى القرون . ليس منها صورة إلا ولها جمالها : تحت سقف الهيكل أو تحت رداء الفلسفة ، فى « الحقائق النبيلة » للبوذية أو فى « الموعظة على الجبل »[1] ، فى فكر أفلاطون أو فى فكر « سبينوزا » ، قد وَجد سعىُ الناس للوصول إلى الحكمة تعبيرات مؤثرة رائعة : ولكنى لا أعتقد أن المثل الأعلى قد بلغ أبدا من النقاء والكمال والقدرة على ملأ النفس ورفعها مثل ما بلغ فى الأخلاق الصامتة التى هى روح العلم .

(١) « الموعظة على الجبل » خطبة مشهورة ألقاها المسيح على أتباعه (انجيل متى : الإصحاح الخامس والسادس والسابع) — المعرب .

الفصل الحادى عشر

الاعتراض الأكبر

غير أن هاهنا اعتراضا :

قد يقال : سلمنا بأن للعلم مجاله الخاص ، وهو مجال فسيح ، ولكنه ليس مجالا كليا جامعا ، وسلمنا بأن العلم يؤلف بين النفوس ، ولكنه لا يؤلف بينها إلا فى بعض المواطن . وأخطر من هذا أن ما يدعه العلم خارج طاقته هو بالضبط الشىء الذى له أكبر مساس بنا .

متى اقتصر الأمر على المادة والحركة استطاع العالم أن يقدم غذاء طيبا لرغبة الاستطلاع فينا . ولكن حاول أن تتحدث إلى العالم عن الروح أو عن أصل الإنسان ، أو عن غاياته القصوى ، أو عن الموت ، أو عما يحدث أو لا يحدث بعد الموت ، فإنك واجد عنده تصريحا بعجزه وعدم اختصاصه ، أو تهربا من الموضوع . أليس يحل لغيره أن يتحدثوا حين يلوذ هو بالصمت ؟ وإذا كان ما يتحدثون عنه هو الأمر الذى يعنينا قبل

كل شيء ، أليس يحل لنا أيضا أن نطلب إليهم هم أن يبينوا لنا الغرض والطريق ؟ يستطيع العلم أن يقدم إلينا مثلا أعلى نبيلا مثيرا جذابا . ولكن كيف يستطيع إما دام جزئيا أن ينازل أولئك الذين يجيبون عن جميع المشكلات والذين يرضون جميع الرغبات ؟

يردد هذا الاعتراض كل يوم ، ويرد أحيانا على ألسنة رجال لا يقفون من العلم موقف خصومة أو استرابة ، يبجلونه ويولونه ثقتهم ، وقد لا يكون لهم من مطلب إلا أن يتابعوه إلى النهاية ، ولكنه يقف فى منتصف الطريق ، فيفارقونه على مضض ، لأنهم يريدون أن يسيروا أبعد مما سار ، ولأنهم يحسون الحاجة إلى حقيقة أتم وإلى حكمة أوفى .

فما الجواب على الاعتراض ؟

الجواب أن الحق معهم من غير شك فى قولهم إن العلم لا يجيب عن كل شيء ، وهو فى هذا مخالف للأديان والفلسفات التى تتسابق فى تقديم شتى الحلول لمشكلات لا تحصى . لننظر على سبيل التمثيل فى دين كبير من أديان النجاة كدين « مِثرا » mithracisme الذى كاد أن يغزو العالم فيما قال « رنان » . نعم إن معتنقه يجد فيه ما يرضى كل ما يتطلع إلى معرفته ، يجد فيه أولا تاريخ ربه :

ولد « مِثرا » المخلص مولدا معجزا ؛ ثم عبده الرعاة ؛ وافتدى الناس بعد أن دنستهم الخطيئة الأولى . وبعد أن قضى حياته يقاتل أمير الشر

جمع تلاميذه حول مائدة مقدسة ، ثم بما له من قوة خاصة صعد إلى السماء. فإن أردت أن تملك الحقيقة وأن تضمن نجاتك فى آن واحد فآمن به ، وشارك فى قرابينه ، واشرب المــاء الذى هو دمه ، وكل الخبز الذى هو جسده . وإن شئت أن تعرف نظام الـكون ، فانضم إلى زمرة مريديه (mystes) تنــكشف لك أسرار الخلق ، أو الدوائر التى يكون فيها العالم. وإن شئت أن تعرف مصير الانسان بعد الموت فألق سمعك تعلم أن روحك سوف تخلص من الفناء فى نهاية حياتك على الأرض ، وسوف تقف بين يدى « مترا » ليحكم فى أمرها بما آمنتْ وبمــا عملتْ : فإن كنت مدنسا آثما خلدت فى نار جهنم ، وعذبتك الشياطين ، وإن كنت مطهرا صالحا نلت نصيبك من النعيم المقيم وبعثتْ الحياةُ فى جسدك ، وكان مثواك فى السماء بجوار « مخلصك » .

لابد من الإقرار بأن مذهب «مترا» الذى يقدم هذه اليقينيات كلها يأتى بمذهب أتم مما يقدمه العلم اليوم إلينا ، ويجيب أجوبة مستفيضة على جميع ما يعنينا أن نعرف . ولــكن من منا يؤمن بمترا ؟

ومَن مِن الناس يؤمن بايزيس و«أوزيريس» و«ديمتر» Déméter و « برسيفون » و « قيبيل » و « أتيس » و « زيوس » و « أبولون » و « هرقليس » Héraklés ؟ زعمتْ جميع هذه المتقدات الـكبيرة أنها خالدة حاسمة . وجميعها دالت دولتها وتضاءلت أمام جهود النقد ؛ وجميعها

كان ينبغى أن تنجينا من الموت ، وجميعها ماتت من نفسها .

ولنلاحظ أنه ليس منها معتقد إلا وفيه إغراء : يلذ للمرء أن يعتقد أن « مِثرا » أو « أتيس » قد قالا حقا ، وأنه يكفينا أن نؤمن بالفضيلة وأن نمارسها لكى يكون لنا الحق فى أن نؤمل لنفوسنا بقاء ونعيما مقيما . ولو خلينا جهنم جانبا (من منا يقبل سعادة لا تكون سعادة الجميع ؟) فما يطلب المرء إلا أن يقبل أديان النجاة التى تضمن سعادة لا نهاية لها . ومع ذلك فنحن لا نؤمن بها . و « الأدلة » التى ساقتها « الأرفية »[١] و« المترواقية » و«المثرائية» لا نعبأ بها اليوم إلا كموضوع من موضوعات الدراسة ، ولا يخطر ببالنا أن نناقش ما لهـا من قيمة . لم يكن لها سند من العقل ولا من التجربة فنامت مع من آمنوا بها ، وأصبحنا وإذا تلك اليقينيات التى آمن بها ملايين الناس ، أفكار ميتة مرصوصة على طول الطريق البشرية .

فنحن الذين نشاهد تغير هذه الحقائق المتعاقبة ، نحن الذين نراها فى التاريخ تولد وتنتصر وتموت ، أليس لنا الحق فى أن نقول لأنفسنا

---

(١) « الأرفية » Orphisme مذهب دينى نشأ ببلاد اليونان فى القرن السادس قبل الميلاد ؛ وينتسب إلى « أرفيوس » الشاعر القديم . وما نعرفه عن « الأرفية » إنما أتى إلينا من الإسكندرانيين ، الذين خلطوا المذهب بأفكار شتى ، خلعوا عليها ثوبا مقدساً ، وجعلوها على لسان الحكماء الأوائل — المعرب .

بأن من أيسر الأمور أن تحل جميع المشكلات إذا لم يلتزم الإنسان فى حلها تلك المناهج الشديدة التى يجعلها العالم قانونه الذى لا يحيد عنه ؟ أليس لنا الحق فى أن نرى أنه ليس ليقين قيمة كبيرة إذا لم يستطع أن يثبت على الزمان والمكان ، وإذا بلغ من الضآلة أن يختفى بتمامه دون أن يبقى منه شىء ؟ أيجب علينا أن ننتقص من مذهب لأنه لا يجيب على الفور عن جميع ما يعنينا أن نعرف ، فى حين أننا نرى الجم الغفير من الأجوبة المطلقة المتصلفة يسقط الواحد منها بعد الآخر فى مهاوى الإغفال والنسيان ؟

قد يعترض علينا بأن العلم هو أيضا يشاهد انقراض كثير من مذاهبه ونظرياته . إذا صح أن الفروض تذهب وأن أكبر الفروض قد يجرى عليها ما يجرى على الجمهرة الشائعة ، وأن العلم ، كما قدمنا، لا يعرف إقفال باب المناقشة ، إذا صح هذا فيبقى أولا أن بعض الوقائع الممحصة تمحيصا جيدا تبقى وتكون فى العلم أشبه بما يسمى فى الاصطلاح الحديث « بالرصيد الذهب » (encaisse-or) ، ويبقى أيضا أن النظرية الجديدة تلتئم مع سابقتها ، وتشرع فى الاعتماد عليها قبل أن تتجاوزها . وإذن فخطأ اليوم يقوم بدور نافع وهو أن يمهد لحقيقة الغد ، وهذه بدورها تمهد لحقيقة أعلى ، وهكذا إلى غير نهاية .

أما الحقائق « المطلقة » فمصيرها على العكس هو الانقراض التام . إن

وحى « مِثرا » لا يتقـــدم إلى أنصار الدين فى صورة تعبير مؤقت عن معارف من شأنها أن تنمو وأن تتحول ، وإنما يتقدم كتلةً واحدة ، فإما أن تقبـل أو تترك . وحينئذ لا يقصر الأمر على تركها ، بل إن من يتصدون للقيام مقامها يـكونون أبعـد الناس عن الاستناد عليها ، بل يبدأون بصب اللعنة عليها ، ويعلنون أنها من عمل الشيطان : يحطمونها بالقـوة ويجهـزون عليها بالنسيـان ، ثم يزعمـون هم أيضـا أنهم خالدون ! . . .

قد يقال إن تقديم أجوبة مصيرها النسيان هو على الرغم من ذلك كله أفضل من عدم تقديم أجوبة مطلقا ؛ وَلأنْ نؤمن بمثرا أو بأى واحـد غيره ، فنجد فى ذلك الإيمان رضى وسلوى ، أفضل من أن نثق بعـلم لا يريد أو لا يستطيع أن يقول لنا شيئا عن الروح ولا عن الموت ولا عن مصيرنا بعد الموت .

أعرف أن الـكثيرين يقولون هـذا ، وأعرف أن بينهم كثيرين من أصحاب النفوس النبيـلة جداً . زد على ذلك أن عالم الاجتماع لا يدهشه أن يرى مذاهب الاعتقاد والأمل التى سيطرت على العالم قرونا عديدة لايزال لها اليوم بعض السلطان على ملايين القلوب البريئة . ومن أجل ذلك كان كل ما شابه التعصب القديم وكل ما كان من قبيـل الـكراهية أو الازدراء للعقائد الإنسانية شيئا بعيدا عن الروح العلمية .

ولكنى وإن كنت أبذل غاية جهدى لأتحاشى إيلام أى شخص أو خدش إحساسه ، أريد أن أبين لِمَ كان الاعتراض الأخير الذى يوجه إلينا ، والذى يُظن أنه حاسم اعتراضاً لا ينال منا وطرا .

نسأل أولا : أحق أن العلم يسكت عن كل ما يمس النفس والموت و بقاء الروح بعد هلاك البدن ، و بالأجمال عن جميع الأديان ؟

كلا بل تغلغل العلم فى هذه المجالات فى صورة تاريخ الأديان أو علم الاجتماع الدينى . وأجاب عالم الاجتماع عن السؤال القديم : « هل الآلهة موجودة ؟ » بقوله : «إنها موجودة قطعا باعتبارها وقائع اجتماعية كبيرة» وهو قد أكبّ على هذه الوقائع فدرسها كوقائع لا تحدوه إلا الرغبة فى الفهم؛ فاستعيض عن التاريخ الجدلى الذى شاع عند فلاسفة القرن الثامن عشر ، وعن التاريخ الشعرى الذى برّز فيه « رنان » [١] ، بتاريخ قام على مهل ، مشبعا بروح ومناهج علمية محضة ، فلم يقنع بأن أخضع لبحوثه المسيحية واليهودية بالتناوب ، بل أخضع لها أيضا المعتقدات والشعائر عند جميع البلاد وفى جميع الأزمان حتى الصور الأولى للحياة الدينية .

---

(١) « رنان » Renan من أشهر العلماء والكتاب الفرنسيين فى أواخر القرن التاسع عشر . نشر بحوثاً مرموقة عن « أصول اللغات » وعن « تاريخ أصول المسيحية » ؛ وله مؤلفات كثيرة مشهورة منها « محاورات وخطب فلسفية » و « مستقبل العلم » . . . طبع مذهبه الفلسفى بطابع وحدة الوجود والمثالية ، وبسطه فى صورة شعرية بالغة الروعة والجمال — المعرب .

فإذا المعتقدات المتصلة بالنفس و بالألوهية و بالشعائر و ببقاء الروح وقد أصبحت اليوم ظاهرات يدرسها العالم بتمام الهدوء والصفاء كما يدرس، فى مجالات أخرى الظاهرات الطبيعية أو البيولوجية . و إذا صح لبعض الناس أن ينازعوا اليوم فى النتائج الأولى لهذة الدراسة فإن أحدا لم يعد يجسر على المنازعة فى مبادئها ولا فى مناهجها .

فلا يقولن أحد إن العلم يعمد إلى نوع من التشيع ، فيُخرج من مجاله الخاص كل ماله مساس بالحياة الدينية : بل إنه ليرحب بأن يجعلها موضوع بحوثه ؛ وهو يرى فى الأفكار المتصلة بالروح و بالمعجزات و ببقاء الروح «آراء جمعية» représentations collectives يسعى إلى إدراك طبيعتها وتطورها : ولا يخطر بباله أبدا أن يلتمس فيها مادة للسخرية أو للمناظرة والجدال ، و إنما يلتمس فيها معلومات عن تاريخ الفكر .

حق إن هناك فرقا بين أن ندرس العقائد المتصلة بالروح و ببقائها و بين أن نقطع بأن هناك روحا أو بقاء . وأقر عن طيب خاطر بأن العلم يأبى الإجابة عن أكثر المشكلات التى بتت فيها العقائد أو المذاهب . صحيح أنه قد يقع للعلم أن يصدر حكما ؛ فواضح أنه مثلا ينكر « المعجزات » : أولا لأن الوقائع المعروضة تحت هذا الاسم ليست محققة وفقا للقواعد العادية للمنهج الوضعى ؛ وثانيا لأنها لو كانت كذلك لكان كل الجهد العلمى عبارة عن إخضاعها لفكرة القانون الطبيعى . ولكن

العلم يسكت عن مسائل أخرى : فلو سألتــه رأيه فى الروح أو فى البقاء بعد الموت لما أجابك بشىء .

أقول إنه لن يجيب : لأنه لا بد لى هنا أن أدفع الالتباس . زعم البعض حينا أن « المادية » إما أن تكون مسلمة من مسلمات البحث العلمى أو نتيجة من نتائجه . ولـكن الواقع أن المادية لا تعدو أن تـكون مذهبا ميتافيزيقيا . وليس من شأن العلم من حيث هو علم أن يحاربها أو أن يناصرها . وحسبه من عمـل أن يتبين طبيعة المادة وعلاقاتها بالظاهرات البسيكولوجية دون أن يتشيع لمذهب قد يؤثر فى بحوثه المستقبـلة . وإذن فقد صح من جميع الوجوه أن العلم يقف اليوم بإزاء بعض ما أثارته أفـكار النـاس من مشـكلات ، موقفَ الصمت والتنحى عن التصريح بشىء مالم يكن قد تحقق من معاينته كما ينبغى .

ولـكن أيلزم أن يكون ضمتُ اليوم صمتا أبديا ؟ أيلزم من عـدم الاهتداء ، فى بعض المواضع ، إلى حل من الحلول، أو من عدم الاهتداء حتى إلى الجانب الذى يمكن أن يُلتمس فيــه ذلك الحـل ، أن لا نبحث عنه وأننا لن نهتدى إليه قط ؟

* * *

نعم هنالك فـكرة عن العلم هزيلة مستحيية تقضى علينا بهذا العجز : وهى الفكرة التى ترسم حدوداً لمجال بحوثه وتقول له : « هنا مجالك »

وتمنعه مقدما من أن يخرج منه أبدا . ولكن هناك فكرة أرفع وأشد اعتزازاً ، وهى تأبى أن نسلم بأن مشكلة كائنة ما كانت يمكن أن تفلت مبدئيا مما للعقل والتجربة من سلطان متزايد .

فأى هاتين الفكرتين كانت أخصب ؟ أقرأ فى بعض مؤلفات « أوجست كمت » أن العلم يمكن أن يعين أشكال الكواكب وأبعادها وحجومها وحركاتها ، ولكنه لن يستطيع « أبدا أن يدرس بأية وسيلة تركيبها الكيميائى». يقول: «أبدا» ، ولكنه ما كاد ينطق بهذه الكلمة حتى رأينا علما جديدا يكذب كلامه تكذيبا بينا . وأقرأ فى الكتاب نفسه الذى أشاد فيه مسيو « ترمبيه » ببهجة المعرفة قوله : « أكبر الظن أننا لن نعرف أبدا كيف تكونت الأرض وهل هى سديم من السدم الصغيرة المركزة فى كتلة من الأجسام الصغيرة الصلبة معلقة بعضها ببعض . وأكبر الظن أننا لن نعرف أبدا ماهى الحالة الطبيعية لنواتها الداخلية . . » ويسطر صفحة بتمامها يحصى فيها هذه المشكلات التى لا بد أن تتحطم عليها جهود العلم مهما بلغت . وتعود كلمة « أبدا » ويسمع لها رنين ، وكأنها حكم لا نقض له ولا إبرام ! ولكن فى نفس الوقت الذى يضع فيه مسيو « ترمبيه » هذه الحدود كلها ، بزغت بواكير طرائق لحل المسائل التى ظن بحسن نية أنه لا سبيل إلى حلها .

و إذن فعلام يستند الذين يصرحون بأن المشكلات المتصلة بالروح

والموت والبقاء ستظل دائما عند العلم ألغازا لا سبيل إلى حلها ؟ ومن ذا الذى يقول لنا إن العلم سوف لا يتناول جميع هذه المناطق التى لم تزل مظلمة ، فينشر عليها النور ، إما بالإجابة عن الأسئلة الموضوعة ، وإما ببيانه أن من الواجب وضعها على نحو آخر مخالف للنحو الذى وضعت عليه من قبل .

قد يقال إن الواقع أننا لا نرى بعدُ أى جهد فى هذا السبيل . وإنا نسلم عن طيب خاطر بأن المحاولات التى بذلت تحت اسم « علم الأرواح » Spiritisme فيها شىء يدعو إلى التشجيع . وأكبر الظن أن هذا الخطأ المشئوم كان مما ساعد على نشر الفكرة بأن العلم ينهج سبيل الحكمة بوقوفه من نفسه على عتبة بعض المجالات . ولكن من حيث إن « علم الأرواح » لا يعدو أن يكون « كاريكاتورا » للعلم فقد لا يخلو من جرأة أن نأخذ من فشل الأول حجة على فشل الثانى .

والواقع أن العلم إذا لم يكن قد صاغ أى جواب عن جميع هذه المشكلات التى تبت فيها المذاهب والعقائد ، فيبدو أنه فى طريقه إلى تغيير مفروضاتها(١) تغييرا قويا . إن الذى كان يسود جميع الآراء القديمة المتصلة بمدة الوجود الإنسانى إنما هى نفس فكرة زمان مطلق : ولكن ما مصير هذه الفكرة الميتافيزيقية غداة التقدم الذى غيّر تغييرا عميقا نظرتنا الوضعية إلى الزمان ؟ والذى كان يسود جميع المناقشات المتصلة

---

(١) données — مفروضات المعرفة هى المواد التى يشتغل الذهن عليها والتى لا يستطيع أن يخترعها ولا أن يغيرها — المعرب .

بالعلاقات بين المادة والفكر إنما هى طريقة قديمة مجملة فى تصور المادة :

ولكن منذ ربع قرن تلقى هذا التصور من الفيزيقا ضربات شديدة بلغ من شدتها أن جعلته اليوم تصورا يمت إلى الماضى ولا يعبّر عن الحاضر . فإذا كان سابقا لأوانه أن نقول إننا نلمح من الآن حلا ، فليس من الجرأة أن نقرر بأن تبدل أحد العناصر الأساسية للمشكلة إنما هو تبدل يتناول المشكلة القديمة بأسرها . وأخيرا إن نفس النظرية التى بسطها « لانجڤان » فى العام الماضى عن معنى « الموضوع الفردى » objet individualiste ، هذا المعنى الذى يبدو لنا غاية فى البساطة ، والذى نرى العلم بسبيل تغييره تغييرا عميقا جدا ، قد تُغيّر نفس مفروضات عدد كبير من المسائل التى حلتها قبل الأوان فلسفة لم تكن تنظر إلى الوجود إلا من زاوية الفردية .

***

أعلمُ حق العلم أن تغيير مفروضات مشكلة من المشكلات ليس معناه حلها؛ وسأحتاط لكى لا أتخيل حلولاً قد لا تستند على شىء فى الآونة الحاضرة . ولكن تقدم الفيزيقا وما استتبعه من انقلاب فى آراء كانت صميم الحلول الميتافيزيقية العتيقة ، أليس فيه ما يكفى لإثبات أن العلم ليس مقضيا عليه بدياً بالعجز أمام مشكلة ما ؟ كلا لا ينبغى على العلم أن يعدل عن « التماس أصل الكون ومصيره » كما خيل إلى الوضعيين . ولا ينبغى

عليه أن يعدل عن إدراك العلاقات التى تربط بين المادة والفكر . ولا ينبغى عليه أن يعدل عن معرفة الموت ماهو على التحقيق وما مدى مساسه بالفكر . ولكن يستطيع العلم ويجب عليه أن يقول : « لا نعرف فلنبحث ! » حيث يقول غيره منذ قرون « لا نعرف ، فلنؤمن » .

أفى التكلم بمثل هذا الكلام ، أى الاعتراف بالجهل مع التصريح بأنه مؤقت ، والعمل على القضاء عليه ، ما يفيد الاقتصار على حكمة جزئية هزيلة ؟ كلا بل على العكس ، إنه يفيد التصريح بأن الحكمة الصحيحة هى تلك التى تريد دائما أن تزيد وأن تتفتح لها الآفاق . وليس فى ذلك الكلام ما يحد من المثل الأعلى الإنسانى ، بل فيه ما يفتح الأبواب كلها لجميع الآمال .

ولكن سيقول المتعجلون وقليلو البصر إن كل هذه الكشوف الكبيرة ستأتى بعدنا وقد تكبدنا عناءها دون أن نقتطف من ثمراتها شيئا .

ويشبه هذا الكلام جملة كثر ذكرها : « سيجدون السبيل إلى أن لا يموتوا ، وسيكون ذلك بعد أن أكون أنا قد مت » ! ولكن فيم الاعتراض ؟ إنه النصيب المقسوم والحظ المقدور على جميع من يطلبون الحقيقة أن يعملوا لمن يجىء بعدهم أكثر مما يعملون لأنفسهم . أينبغى أن نرثى لحالهم ؟ أليس لتضامن الأجيال ، هذا التضامن الذى يجعل منا صناعا غير مغرضين نعمل لسعادة من يجيئون بعدنا ، أروع وأوقع من

الأنانية التى تريد أن تحبس أحلامنا بين الحدود الضيقة التى تحد المصير الفردى ؟ ومن يدرى ؟ فقد يستطيع العلم نفسه أن يرينا يوما أن مساهمتنا مقدما فى مصير من يأتون بعدنا ، وأن بثنا روحنا فى روحهم وحياتنا فى حياتهم ، ربما كان آخر الأمر وسيلة من الوسائل التى نذود بها الموت عنا .

الفصل الثانى عشر

الملحمة الإنسانية

قلت فى بدء هذا البحث إن مثلا أعلى خليقا بهذا الاسم يجب أن يكون قادرا على أن يثير الحماسة ، وأن يحرك الهمم ، وأن يأسر الألباب . وأود أن أسأل فى الختام أى مثل أعلى يستطيع بهذا الصدد أن يكافىء المثل الأعلى الذى يتضمن الإبداع العلمى ، وأى مجال أبعد منه آفاقا يمكن أن ينفتح للناس المتعطشين إلى التضحية و إلى الشعر والأمل .

وليس معنى هذا أنى غافل عما انطوت عليه النظريات السابقة من جاذبية وسحر : خلق الله الإنسان ، وجعله على صورته ، وفضله على العالمين . وكانت الخطيئة وأصبح الإنسان بها من الخاسرين . ولكن ما تزال منزلته فى مركز العالم ، وكأنه نصب ملكا على الخلق أجمعين . وجاء «مخلص» فكفر عن سيئات الإنسان، وجعل مصيره الأعلى أن يذهب ليلتقى ربه الذى علمه الحقيقة الأزلية وكاشفه بالعدل الخالد .

ولا محل للعجب من أن أمثال هذه الأفكار ، مهما يخالطها من شوائب،

تروق الناس وتجد عندهم آذانا صاغية . . لسنا نحن الذين نريد أن نحط من قدر أى جهد إنسانى عظيم يبذل من أجل الحق ومن أجل العدل . ولسنا نحن الذين ننازع فى أن أديان النجاة جاءت آية شاهدة على التقدم البديع الذى بلغته وفاقت به الأديان الزراعية agraires القديمة التى ورثتها . ومادام العلم قد شرع لنفسه قانونا وهو أن يفهم كل شىء ، فليس لنا من مطلب إلا أن نحكم بالعدل على العقائد التى لا ندين بها .

ولكن ليسمح لنا على الأقل أن نعارض هذه النظرات القديمة بالنظرة التى يوحى بها إلينا العلم منذ الآن .

لم يَعُد الإنسان مستويا على العرش وسط العالم ، ولم يعد مفضلا على العالمين . وليست الأرض فى مركز المنظومة الشمسية ولا هذه المنظومة نفسها فى مركز الكون . وما المجرة إلا واحدة من بين جحافل عديدة من الكواكب انتظمت فى الفضاء على ملايين السنين الضوئية . وما الشمس التى قدسها كثير من الشعوب إلا وحدة تافهة ، وما الأرض إلا جزىء ضئيل وسط هذه الجحافل التى تشتمل على مليارات الكواكب. ومع ذلك ففوق هذا الجزىء ، ومنذ مليارين من السنين على وجه الاحتمال، ظهرت الحياة ، وخرجت صور ومثل أصبح أحدها مثال الإنسان .

خيل إلى الناس أن أجدادنا فى العهود السحيقة من أواخر الزمن

الثالث[١] أو أوائل الزمن الرابع[٢] كانوا ملوك العالم . ولكن يالأسف إنهم لم يستطيعوا إلا بجهد بطيء شاق أن يرتفعوا شيئا فشيئا عن مستوى سائر الأناسى القريبة من القردة . وما الأرض التى يعيشون على ظهرها ؟ إنهم لا يعلمون . ومن هم أنفسهم ؟ إنهم يجهلون . صرفتهم عن ذلك مشاغل العيش ، واتقاء البرد والجوع ، وصد عدوان الحيوانات الأخرى. جهلوا القوانين ، بل جهلوا فكرة القانون نفسها ، وساور خيالهم القلقُ والفزع ، فتوهموا الدنيا مملوءة بالقوى المجهولة والإرادات المتعسفة المستبدة. وأخذ الخوف ، وهو ابن الجهل ، يستحوز على نشاطهم القلق المضطرب . ومع ذلك فقد بزغت من لب هذه الحقيقة المتواضعة الملحمةُ الإنسانية الكبرى : شرع الإنسان يتحرر بالفكر .

الفكر هو الذى أوحى بصنع تلك الأداة الأولى التى نستطيع اليوم بفضلها أن ننشىء من جديد مصير أجدادنا . وفى حين بقيت أداة « الشنمبزى » منثلمة ، تقدمت أداة الإنسان فدقت وتنوعت ، لأن المشاهدة والتفكير قد هديا أوائل المخترعين . وقد رأينا أن هذه الروح

---

(١) l'âge tertiaire : ابتداء ظهور أنواع الحياة الحديثة من نبات وحيوان وبدء ظهور القردة والثدييات الراقية .

(٢) l'âge quaternaire وهو العصر الجيولوجى الحاضر : ظهور الإنسان مع حضاراته القديمة .

نفسها ، روح المشاهدة والتفكير ، قد انبثت حينا فى السحر نفسه وفى الأديان . وقد يجد الباحث فى ثنايا بعض عقائد مهجورة الآن من جميع الناس ، شيئا يؤذن بالعلم ويمهد له . وأخيرا خرجت فكرة القانون الطبيعى من هذه الجهود البطيئة ، فوُجِد السلاح القاضى على الخوف القديم ، والمعين على فتح العالم .

فتح شديد العناء ! فبعد الومضة الأولى التى أضاءت شطراً من عالم البحر المتوسط ، تقهقر العلم أمام الموجة الصوفية التى جرفت الإمبراطورية الرومانية ، فأضحى خيطا رفيعا ضائعا فى الغابة الكلامية المدرسية . ولكن جاء عصر النهضة بفتنته ، فعاد العلم إلى الظهور أكثر تألقا وأشد إقداماً مما كان من قبل . وإذا بنا فى عهد « كپرنك »[1] و « جاليلى » و « كپلر » نشهد تلك الإنسانية نفسها التى كانت فيما مضى مكبة على الأرض ، باحثة فى قلق عن سبل العيش ، وقد قذفت بنفسها ، تبتغى أن تفتح السماء . وانهزمت الكواكب ، وسارت تحت لواء القانون.

---

(١) « كپرنك » Copernic (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) عالم فلكى بولندى ؛ يرجع إليه الفضل فى انتصار النظرية الفلكية الحديثة التى تجعل الراصد هو الدائر بسبب دوران الأرض ، على نظرية « بطليموس » القائلة بسكون الأرض ودوران الكرة السماوية فى المغرب .

الكبير الذى صاغه « نيوتن »[١] .

أهذا كل شيء ؟ كلا ! بل مضى العلم قدما دون أن يقف عند هذه الانتصارات الفتانة . وبدا عالم « جاليلى » عالما قد تجاوز حده ، ففرقع تحت ضغط الكشوف المتراكمة . أصبحت المجرة وحدة معينة ، وانكشفت للإنسان مجرات أخرى منفصلة عنها بفضاء يقطعه الضوء فى ملايين السنين ، وتجاسر الإنسان على أن يقيس تلك المجرات . ثم جاء حين من الدهر لاح فيه أن الذهن الإنسانى سيضل عن طريقه فى هذا الكون اللامتناهى . ولكن فى ذلك الحين نفسه بيّن « أينشتين » أن كل تلك المجموعة الهائلة من السدُم[٢] قد احتواها فضاء محدود : سيطر الفكر على ما كان يبدو متحديا كل فكر ، واستطاع بالمشاهدة وبالحساب أن يرتب أمور منزله .

وما هذا إلا تقدم علم واحد من بين العلوم . ولكن الذهن ألقى بنفسه فى جميع الاتجاهات ساعيا وراء الحق ، ولم يخش حين شارف اللامتناهى فى العظم ، أن يشارف اللامتناهى فى الصغر ، متناولا الكوكب والذرة

---

(١) « نيوتن » Newton (١٦٤٢ – ١٧٢٧) رياضى وطبيعى وفيلسوف إنجليزى ؛ أحد أساتذة العلم الحديث ؛ وصاحب نظرية الجذب العام ؛ وله نظريات فى علم البصريات ؛ اخترع فى وقت واحد مع ليبنتز حساب الأجزاء اللامتناهية فى الصغر ؛ وعاون على نشر الفلسفة الروحية – المعرب .

(٢) nébuleuses

فى آن واحد . ولـكنه حين تغلغل فى العالم الذرى لم يجد فيه نسخة مصغرة من العـالم السماوى ، كما ظن « پسكال » ، بل اكتشف فيه طرائف لم تـكن فى الحسبان[1] ، ووفرة من المتنوعات أورثته أول الأمر حيرة و بلبالا. ومن هـذا السلوك الجرىء الذى حمـل الفـكر بالتناوب من المجرة إلى الإلـكترون électron انبثقت نظرات جديدة عن المـكان والزمان والضوء والمادة والوجود نفسه .

وفى الحين نفسه الذى أثْـرت فيه الفيزيقا ثراء لم يكن للناس عهد به، أغارت البيولوجيا على المادة الحية ، وتلمس علم الوقائع الإنسانية سبيله ، وانبرت جحافل من المؤرخين لدراسة المـاضى ، فـكدسوا وقائع ، و بددوا أكاذيب وضلالات وأساطير ، وسـعوا إلى أن يتبينوا شيئا من منعطفات التطورات الإنسانية .

لنوازن بين إنسان اليوم الذى عاصر هـــذا التقدم المعجز الخارق بالإنسان الذى عاش أوائل « الزمن الرابـع » و بين ذلك المخلوق الجاهل المذعور الذى كانت أقصى مطامعه أن يقدّ مطرقة خشنة من الصوان .

ولنسائل أنفسنا أيوجد شىء أبدع وأعمق شعرا وأكثر هزا للنفس من هـذا التحول الفذ المذهل ، تحول الإنسان من مخلوق يرتجف إلى مخلوق يعرف ؟

---

(١) nouveautés imprévues.

إنى شديد الإعجاب بما فى « الإلياذة »[١] من تصادم الناس والآلهة وبما فى « الإنيدة »[٢] من شدة مراس الإنسان الذى يكافح وينشئ ، وبما فى « ترِسْتان »[٣] من قوة الحب التى لا تُغلب . وإعجابى لأن الفن كالعلم تمجيد للذهن وإبداع مبرأ من الغرض ، وقوة مشاركة روحية فى المثل الأعلى . ولكنى أقول إنه ما من ملحمة مكتوبة ، وما من قصيدة تشيد بالأفعال والانفعالات تعدل فى ثرائها وعمقها هذه الملحمة الرائعة التى حولت الإنسان من مخلوق ضعيف مذعور سريع التصديق إلى فاتح من الفاتحين المسالمين يُغِير على أسرار الكون .

***

نعم قد اختلطت باللوحة بعض الظلال : بسط الذهن فتوحه وغزواته ولكن تخلّفت الأخلاق عنه ؛ وزاد حظ الناس من المعرفة ، ولكنهم لم يصبحوا أقل مما كانوا بغياً وعدواناً : تقسيم الأرض بين الشعوب وتوزيع الخيرات على الأفراد ، بل تقسيم الثقافة العقلية ، ما زال هذا كله ترفرف عليه راية العنف والجور . . ومن أشنع المفارقات أن عصر « هنرى

---

(١) « الإلياذة » Iliade ملحمة رائعة من الشعر اليونانى القديم ، قص فيها « هوميروس » قصة طروادة (فى القرنين التاسع والثامن قبل الميلاد)

(٢) « الإنيدة » Enéide قصيدة من روائع الشعر اللاتينى ، قص فيها « فرچيل » أسطورة « إينوس » (القرن الأول قبل الميلاد)

(٣) « ترستان » Tristan أسطورة منْ أساطير القرون الوسطى الأوروبية .

بوانكاريه»[١] و«أينشتين» و «بوهر» Bohr و«برّان»[٢] و«بلانك» Blanck و «لانجڤان» و «دوبروى»[٣] هو العصر الذى يرى بلادنا الغربية وقد دنستها أول الأمر حرب هى أشد الحروب شناعة ، ثم دنستها سيطرة هى أشد السيطرات خسّة ، وهى سيطرة المال . ولكن الذى أود أن أكون قد بينته هو أن العلم يتضمن مثلا أعلى لو تم له النصر مع العلم لدفع كل هذا البلاء الأخلاقى ، ولاستطاع أن يرد المال إلى مكانه وأن يضع الذهن فى منزلتــه ، وأن يطالب بالتحرر الاقتصادى ، لا كغاية فى ذاته ، بل كشرط للتحرر العقلى ، وأن يؤلف بين الناس فى الحرية وبالعقل ، بحيث ينال الجميع حظوظهم من معارك الفكر ومباهجه.

أهو مثل أعلى بعيد ؟ قد يشاء المعارضون أن يعترفوا بأن العلم الحديث قد تقدم تقدماً ما كان يبـدو قبل ثلاثة قرون أكثر إمكاناً من التقدم

---

(١) « هنرى بوانكاريه » Henri Porncaré (١٨٥٤ — ١٩١٢) فيلسوف فرنسى معاصر ومن أكبر علمـاء الرياضة . تركت مؤلفاته الفلسفية عن « قيمة العلم » و « العلم والافتراض » وعن مناهج العلوم الرياضية والفيزيقية ، أثراً عميقاً فى مفـكرى عصرنا هذا ــ المعرب .

(٢) « بران » Perrin (١٨٧٠ ــ ١٩٤٤) عالم من علماء الطبيعة الفرنسيين؛ كان أستاذاً للـكيمياء الفيزيقية بالسربون حتى قيام الحرب العالمية الأخيرة . صاحب بحوث مهمة عن الـكهرباء وعن النظرية الإلـكترونية . ــ المعرب .

(٣) « دوبروى » De Broglie عالم من علماء الطبيعة الفرنسيين المعاصرين ؛ عضو فى « الأكاديمية الفرنسية » ، حاصل على جائزة نوبل ؛ وأستاذ بكلية العلوم بباريس ، صاحب مباحث قيمة فى المادة والضوء ــ المعرب .

الذى نتحدث عنه اليوم . وقد يسلم المخالفون أيضاً بأنه إذا بدا هدف من الأهداف بعيداً فخير سبيل للاقتراب منه هو أن نعمل لا أن نتململ .

ولست أبغى أن أعتذر عن العلم إذ فتح لنا آفاقاً واسعة بل ينبغى فيما أعتقد أن نشكر له يده ، لأنه لم يرسم حداً لتشوفنا إلى الحق .

أينبغى علينا بأن نسلم بأنه ما دامت كتلة الشمس صائرة إلى الفناء بنفس إشعاعها ، فلم يبق أمام الإنسانيـة لنموها إلا بضع مليارات من السنين ؟ إن هذه الفترة الطويلة من الزمان تمد لنا فى أسباب الرجاء وتهىء لنا مجالا طيباً للعمل . ولـكن إذا استمر تقـدم المعرفة ولو على النحو البطىء المزعزع الذى كشف عنه تاريخ الماضى البعيد ، ومن باب أولى على النحو السريع الذى جرت عليه منذ عصر النهضة ، فما أبعد المسافة التى ستكون بين إنسانية اليوم والإنسانية التى ستظهر بعـد عشرة أو عشرين أو مائة مليون من السنين ! وما أعجب ما سيقع من كشوف ومخترعات ، وما أغرب ما سيتم من تقدم فى الفن وفى طريقـة تصور المثل الأعلى ومصير الإنسانية !

ومن يدرى ؟ فلعل أولئك الناس ـ و بينهم و بيننا من البعد ما يزيد ألف مرة على ما بيننا و بين أهل العصر الحجرى القديم ـ لعلهم يجدون من أيسر الأمور أن يتصلوا بعوالم قريبـة أو بعيدة ، ولعلهم لا يتأثرون بذلك الحادث الضئيل الذى سيـكون عبارة عن انقراض الشمس ،

فيؤكدوا العمل اللامحدود ، عمل الفكر(١) .

* * *

إنى أقف هنا عن الكلام : فربما يعاب علينا الاسترسال مع الأحلام الضافية وإطلاق العنان للمطامع المتطرفة ، بعد أن عيب علينا تمسكنا بحكمة جزئية متواضعة باردة ! ولكن بإزاء هذه الآفاق الواسعة التى فتحتها أمام أعيننا بواكير النجاح الذى أصابته بحوثنا الأولى ، نرجو ألا نرى معترضا يقول لنا إن العلم والمثل الأعلى الذى هو روحه عاجزان عن إشعال جذوة الإيمان والحب والحماسة فى النفوس . كلا إن العلم الذى يسوقنا إلى طلب الحق دون أن نقف عند حد ، لايمت بسبب إلى حكمة هزيلة أو حكمة تُعنى بالمصالح الخسيسة ، وإنما هو من بين المبتدعات التى حققتها جهود الناس أكثرها ثراء ، وأشدها إثارة ، وأعمقها « تديّنا » ؛ إنه يبدل أحلامنا آمالا ويحملها إلى اللامتناهى .

---

(١) أنظر فى «كراسات جماعة العقليين» (عدد مارس سنة ١٩٣١ ص ٨٣) خاتمة المحاضرة القيمة التى ألقاها بول بكرل : « من أين تأتى الحياة » ؟ — المؤلف.

Voir dans les « Cahiers rationalistes » de mars 1931, p. 83, la conclusion de la belle conférence de Paul Becquerel : «D'où vient la vie ?»

فهرس الكتاب

الصفحة

نفائس الفلسفة الغربيـــــة

مديرها الدكتور عثمان أمين

مدرس الفلسفة بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول

سلسلة من الكتب غايتها نقل طائفة مختارة من نصوص الفلسفة الغربية إلى اللغة العربية .

ظهر منها :

« دفاع عن العلم » للأستاذ ألبيربابيه . تعريب الدكتور عثمان أمين

وسيظهر منها قريباً :

« ما بعد الطبيعة » لأرسطو

« خواطر » لمرقس أوريليوس

« تأملات ميتافيزيقية » لديكارت

« مبادئ الطبيعة البشرية » لبركلي

« مباحث في العقل الإنساني » لهيوم

« محاورات في الدين الطبيعي » لهيوم

« مقدمات لكل ميتافيزيقا مستقبلة » لكانت

« التربية » لهربرت سبنسر

« علم الجمال » لبندتو كروتشه

« مشكلات الفلسفة » لبرتراند رسل

« أفلاطون » لدينيس ، الخ ...

للمعرب

١ — «إحصاء العلوم» للفارابى ، مع مقدمة وتعليقات (مكتبة الخانجى القاهرة سنة ١٩٣١)

٢ — L'Humanisme de F.C.S. Schiller (مطبعة المعهد الفرنسى)، القاهرة سنة ١٩٣٩

٣ — « ديكارت » (سلسلة « أعلام الفلسفة ») ، مكتبة النهضة القاهرة سنة ١٩٤٢ (الطبعة الأولى)

٤ — « خصائص الروح الفرنسى » (دار النشر هوروس) القاهرة سنة ١٩٤٤

٥ — « محمد عبده » (سلسلة « أعلام الإسلام ») دار إحياء الكتب العربية . القاهرة سنة ١٩٤٤

٦ — « شخصيات ومذاهب فلسفية » (سلسلة « مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية ») القاهرة سنة ١٩٤٥

٧ — Muhammad Abduh : Essai sur ses idées phioso - phiques et religieuses. (Imprimerie Misr, Le Caire 1945.

٨ — « الفلسفة الرواقية » (سلسلة « أعلام الفلسفة ») مكتبة الخانجى القاهرة سنة ١٩٤٥

٩ — « ديكارت » (سلسلة « أعلام الفلسفة ») دار إحياء الكتب العربية . القاهرة سنة ١٩٤٦ (طبعة ثانية مزيدة ومنقحة)

١٠ — «دفاع عن العلم» تأليف الأستاذ ألبير بابيه . ترجمة مع مقدمة وتعليقات (سلسلة « نفائس الفلسفة الغربية ») دار إحياء الكتب العربية . القاهرة سنة ١٩٤٦

TEXTES DE PHILOSOPHIE OCCIDENTALE
traduits en arabe
Collection dirigée par Osman Amine
Maître de Conférences à la Faculté des Lettres du Caire.

ALBERT BAYET
Professeur à la Sorbonne

La MORALE de la SCIENCE

traduction arabe par
OSMAN AMINE
Docteur ès Lettres,

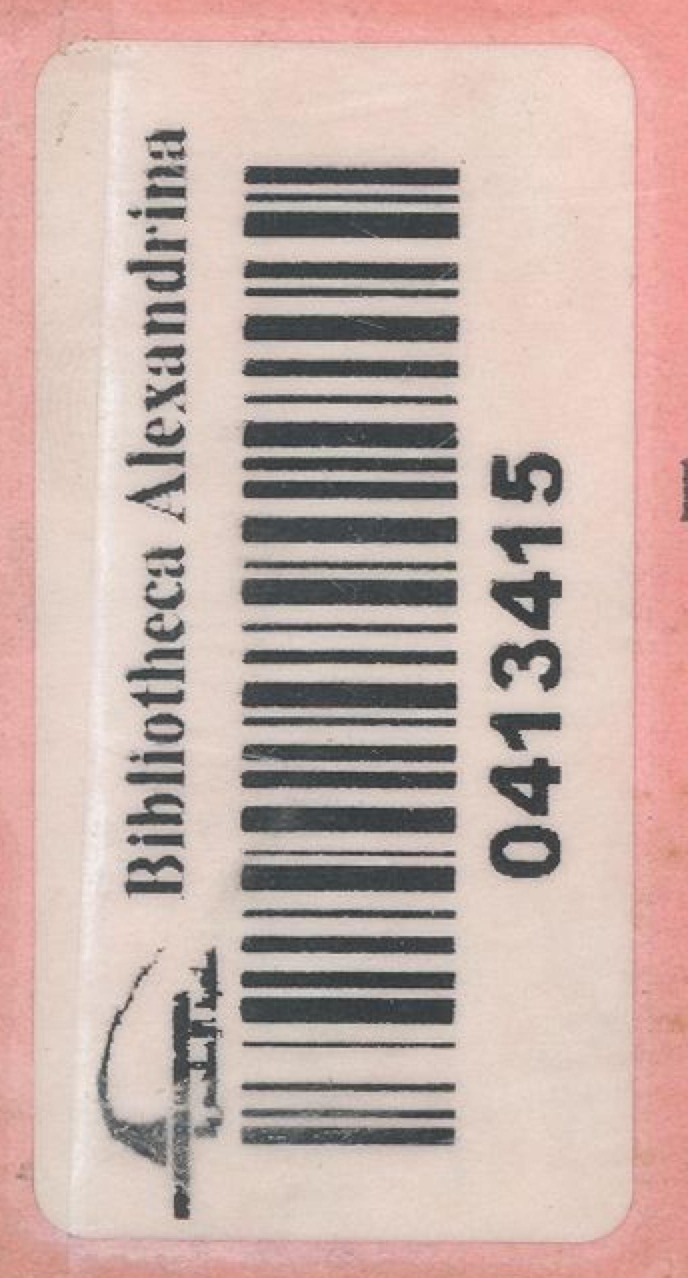
Editeurs
La Renaissance des Livres arabes
Le Caire 1946

TEXTES DE PHILOSOPHIE OCCIDENTALE
traduits en arabe
Collection dirigée par Osman Amine
Maître de Conférences à la Faculté des Lettres du Caire.

ALBERT BAYET
Professeur à la Sorbonne

La MORALE de la SCIENCE

traduction arabe par
OSMAN AMINE
Docteur ès Lettres,



Editeurs
La Renaissance des Livres arabes
Le Caire 1946